رجاء صالح الجبوري

سْنَكين

رواية

دار الإبداع
للطباعة والنشر والتوزيع

سُنگین

- اسم الكتاب: سْنگين
- المؤلف : د. رجاء صالح الجبوري
- الطبعة : الأولى / ٢٠٢٣
- الناشر:

صلاح الدين – تكريت – حي الزهور / ٠٧٧١٠٦٥١٩٦٨

/٠٧٧٢٢٤١٣٩١٢ ٠٧٨٠٦٣٩١٢٤٩

Osama196767@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة / لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه إلا بإذن خاص و مسبق من المؤلف .

ISBN : 9789957691837

الغلاف والإخراج: عمر اسامة محمد

هام : إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

سْنگين

د. رجاء صالح الجبوري

إهداء

" إلى أولئك الذين عصفت الريح برماد أحلامهم فتركوها وحلموا بأخرى ."

" كانت الأرحام أوطاناً فاغتربنا عنها بالولادة"

محي الدين بن عربي

مقدمة:

سْنگين، هو الشاي العراقي العابق برائحة حبات الهيل ، أو أعواد الدارسين ، أو أوراق العطر المغلي على نار هادئة مدة كافية لتكسبه اللون البني المائل إلى الحمرة، والأقرب إلى لون العقيق.

حين يفرح العراقي "يُخدّر" الشاي.

حين يقلق يستعين على قلقه بكوب شاي .

في لحظات الحزن لا بد أن يشهد "استكان" الشاي على دمعه.

الشاي السنگين أنيس كل اللحظات و رفيق كل المحطات في حياة كل عراقي .

ومن خلال العودة إلى جذور الكلمة، سنجدها تعني ثقيلاً أو غنياً أو مفعماً أو عميقاً ، وهنا أيضا يأخذنا سَنكين إلى بلاد النهرين، فهنا كل شيء عميق ، غني ومفعم وثقيل و سنگين، فالحب عميق، والحزن داكن، والشوق ثقيل ...

كل شيء في العراق سنگين!

مجهول النسب

لا أحد يعرف متى وأين ولد صيّاح، كل ما روي له أنهم حينما وجدوه ذات صباح، كان ملفوفاً بخرقة ، ومرمياً على باب أحد دور العبادة في ضاحية بعيدة شرقي البلاد، حدث ذلك في أواخر ستينيات القرن العشرين . تكفلت عجوز سيئة الطباع تعيش على الطرف البعيد للبلدة بتربيته، أو بالأحرى بإيوائه . فما فعلته لم يكن يمتُّ إلى التربية بأية صلة. أطلقت عليه اسم صيّاح ؛ لأنه كان كثير البكاء والصياح. فالعجوز الملعونة بخلت عليه باسم يليق بالبشر، ولم تسجله في دائرة النفوس ؛ لأن المشرّعِ العراقي غفل عن أمر اللقطاء ومجهولي النسب في عام ، ١٩٥٩ ولم يفطن إلى وجودهم حتى العام ١٩٧٤ ... هكذا عاش صيّاح على هامش الوجود عالقاً في رحم الحياة بين الوجود و العدم .

صيّاح

كانت طفولتي رحلة عذاب، فكل ذكرياتي تتمحور حول الصفع، بدأ مسلسل الصفع في عمر مبكر إلى درجة أنّ ذاكرتي لم تسجل تاريخ الصفعة الأولى التي ربما حصلت عليها قبل أن أحصل على ذاكرة، ناهيكم عن التعنيف والصراخ. كانت تؤنبني على كل شيء. أما نعتي بالنغل، او ابن الحرام، فهذا أمر مفروغ منه . ناهيكم عن أنها كانت تمنّ علي أنها آوتني، وإلا لكنت طعاماً لكلاب الشوارع .
كانت تبخل عليَّ بكل شيء. بالطعام والشراب والفراش .

كنت أجلس وأنام في مجاز الدار ، كأي كلب ، وأنام على حصير قديم ألتحف بلحاف قذر قرضته الجرذان من مواضع عدّة، حتى كأس الماء الذي كنت أشربه، كانت تجعله علقماً، وهي تردد على مسامعي سؤالها التقليدي الذي لا تحتاج إلى إجابة عنه:

_ هل ابتليت بك؟

اعتدت تسول لقمة الخبز، وطبق الحساء و الأرز، وحتى الماء البارد في أيام الصيف، وحين لا يُجديني التسول نفعًا كنت أضطر إلى سرقة قوتي. عشت مشردًا بكل معنى الكلمة.

لا أدري متى بدأت بالعمل، فقد فتحت عيني على الدنيا، ووجدت نفسي أقف في ميدان البلدة، يلفحني هواء الصيف ، وتلسعني شمسه الحارقة، و يستقر أمامي دلو معدني مملوء بالماء وكتلة ثلج كبيرة تطفو على سطحه، وقدح معدني، وأنا أنادي :

_ "ماي بارد يا ولد" ...

كنت أبيع كوب الماء في أيام الصيف ببضعة فلوس، وهنالك من ينفحني المزيد من المال ؛ ليترك الباقي "للسبيل" بمعنى أن أسقي الماء مجانًا للسابلة مقابل ما تبقى من مال.

لكنني كنت أهبُ كوبًا مجانيًا واحدًا في كل مرة حتى وإن كان المبلغ دينارًا أخضر بأكمله.

وفي الشتاء كنت أعمل بائعاً متجولاً.

فمرة أبيع الأمشاط ، ومرةً أبيع الصابون، و أخرى أبيع فتائل المدافئ.

كنت أسرق البيض من خممة الدجاج العائدة إلى الجيران و غير الجيران ، كانت هذه هوايتي، فحيثما حللت يغريني منظر الدجاجة،

فأتبعها إلى حيث تأوي، وهنالك أجمع كل ما أجد، لأتجول حاملاً سلة البيض المسروق في سوق البلدة و أنادي:

_ بيضتان بدرهم... بيض عرب..... اثنتان بدرهم

وحين يحين موعد الطعام كنت أحتفظ بمالي؛ لأتسول قوتي من أصحاب المطاعم الشعبية. كنت أحصل في الغالب على بقايا طعام الزبائن ، وحين تشتهي نفسي طعاماً بعينه كنت أسرقه إن أمكنني ذلك، أو أحصل عليه مقابل أعمال خدمية أو تنازلات جسدية أقدمها لمن يريد . كانت لي أساليبي في الحصول على أحلامي الصغيرة ... على ألا يكلفني ذلك مالاً، فما أكسبه من مال مهما كان صغيراً كنت أحتفظ به في علبة معدنية صدئة كانت يومًا تحتوي على حلوى فاخرة من نوع "ماكنتوش" .

تُرى متى أكلت العجوز البخيلة حلوى "ماكنتوش"؟

أظن أنها لا تعرف حتى بوجود حلوى من هذا النوع، ربما عثرت على العلبة بين أكوام القمامة ؛ فحملتها إلى خزانتها المخلعة و المرمية على السطح منذ عقود ، ظل كنزي مخبأً هناك بين أكوام الخردة على سطح بيت "" البلدامة"" . كنت أدّخر المال من أجل ساعة الرحيل.

حتى جاء اليوم الذي عرفت العجوز بأمر مدخراتي ، عدت يومها بعد غروب الشمس، وتوجهت كعادتي إلى السلم المفضي إلى السطح .

_ إلى أين؟

قالت العجوز بمكر.

وحين رفعت ناظري إليها، بينما عقلي يحاول اختلاق أي رواية ، وجدت علبة كنزي تستقر في حجرها ، صُعقت واندفعت نحوها؛

لاستعادة كنزي، فباغتتني بضربة مؤلمة بقطعة من خرطوم ماء (صوندا) كانت تخفيها خلف ظهرها.

جثوت عند قدميها ككلب جريح...

_ أتجمع المال يا نغل! بدلاً من أن تعطيه لأمك. أمك التي انتشلتك من الطرقات، لولاي لكنت الآن في خبر كان. وجبة طعام لكلب سائب من فصيلتك. ثم قهقهت بلؤم.

لم تفلح كل محاولاتي في استرداد مالي الذي ادخرته من "بابا ياجا" التي لم تكتف بذلك ، بل صارت تستولي على كل ما أكسبه يومياً.

كان ذلك في عامي العاشر، لا أدري على وجه التحديد، لكنني أتذكر ذلك الصيف جيدًا، ففي ذلك العام التقيت بأبي الروحي الذي دلني على طريقي، طريقي الذي سيقتل صياح ويُغيّبه إلى الأبد .

بعد أن صارت " البلدامة" تصادر المال الذي أجنيه يومياً، توسطت لي لأعمل صانعاً لدى بائع شاي يملك كابينة صغيرة لإعداد الشاي أمام باب المحكمة، كانت وظيفتي هي أن أحمل "استكانات" الشاي الشبيهة بساعة رمل... نحيفة عند المنتصف منتفخة عند القاعدة، وعند الشفاه تستقر على أطباق خزفية صغيرة ، ثم أعود لأجمع الأكواب الفارغة طامعاً في الحصول على إكرامية.

كان زبائن بائع الشاي كلهم من الكادحين أو المعدمين من عمال نظافة، و فراشين، وكتاب عرائض ، وحتى متسولين ؛ لذلك كان الحصول على إكرامية أمراً مستبعداً ، فينتهي بي النهار عائداً إلى البيت حيث تنتظرني عجوز الشر لتخطف من يدي قطعتين معدنيتين فئة خمسين فلساً . كان هذا كل ما أجنيه في يومي. كنت سأموت

جوعًا لولا خفة يدي، كل شيء كان يثير نهمي للسرقة. حبة "طماطم" من عربة بائع خضار متجول، وقبضة من بائع الحلاوة، ورغيفاً من سلة الخباز.

كان هذا حالي، حتى ناداني العم عصمت الشهير بـ"أبو عبد" كاتب العرائض ذات مساء

_ صياح تعال.

لبيت على الفور من دون تلكؤ.

_ صياح أنت ذيب، لكنك بهذه الطريقة ستظل لصًا صغيرًا يسرق حبة باذنجان وحبتي طماطم من بائع، بيضتين من خمّ الدجاج ، يجب أن تتعلم كيف تصبح حرامياً نظيفاً. لصوص البيض يمضون أعمارهم في انتظار أن تبيض الدجاجة ليظفروا ببيضة ، بينما في وسعهم أن يسرقوا الدجاجة ذاتها.

كانت كلمات عصمت تفعل بي فعل السحر، أطعته في كل شيء.

قال: إنني لن أحتاج بعد اليوم إلى أن أسرق طعامي ، أو أستجديه، فعليّ أن أنظف سيرتي من كل ما علق فيها من قذارات، فلا سرقات، ولا تسول، ولا خدمات مريبة، وكل ما سأكسبه سأنفقه على طعامي وشرابي وملابسي.

_ كيف ؟ فما أكسبه يذهب إلى جيب "البلدامة" التي تسمى أمي.

_ لا عليك ستعطيها أجرك الذي تحصل عليه من بائع الشاي، أما ما تجنيه من عملك معي فسيكون لك.

_ وماذا سأعمل؟

_ سمسار، تصطاد الزبائن، وتأتي بهم إلى هنا

لأسهل لهم معاملاتهم، وذلك في أثناء تجوالك هنا وهناك حاملاً صينية "استكانات" الشاي ستقود كل من يحمل ملفًا إلى منضدتي، وسأعطيك نصف درهم مقابل كل معاملة تحضرها إليّ.

ثم مد يده وتناول دينارًا ورقيًا أخضر اللون ، و دسه في يدي .

_ وهذه دفعة أولى، اذهب واشترِ ثياباً غير هذه الأسمال التي ترتديها، واقصد محل الحلاقة ليقص شعرك ويصففه.

ذهبت إلى حيث تباع الثياب المستخدمة واشتريت لنفسي سروالاً بنياً، وقميصًا أحمر، وحزامًا وحذاءً وتوجهت بعدها إلى الحلاق الذي طردني ما إن باعد بين خصلات شعري ، وقال إن رأسي مملوء بالقمل وبيوضه، وإني قد أنقله إلى الزبائن، عدت إلى البيت، وخبأت ثيابي الجديدة بعيداً عن عيون الشمطاء الشريرة، وتوجهت إلى صفيحة النفط، ورحت أغمس المشط في النفط ثم أمرره في شعري مرات ومرات حتى تبلل شعري بالنفط، وحين عادت العجوز اشتكت من رائحة النفط التي انتشرت في البيت ؛فطردتني إلى الفناء ، بت ليلتي تحت السماء ، لم يكن ذلك غريباً بالنسبة إليّ، فأنا ابن العراء، ومن رحمه خرجت.

مع خيوط الفجر الأولى، أخرجت صابونة "أبو ريحة" كنت قد سرقتها من أحد المحال، وخفت أن أبيعه، فينكشف أمري، فهذا النوع من الصابون لا يتوافر في بلدتنا إلا في دكان واحد.

صابونة علي بابا ودلو من الماء ومشط خشبي ، كانوا كفيلين بإخراج القمل النافق وبيوضه من رأسي. ارتديت ثيابي وحملت ما تبقى من

نقودي و انتعلت حذائي الجديد، وعدت إلى الحلاق الذي طردني بالأمس.

حصلت هذه المرة على قصة شعر جميلة مقابل مبلغ زهيد من المال تم تسجيله في خانة حساب عصمت في دفتر الحساب الخاص بالحلاق .

توجهت بعد ذلك إلى الباحة المجاورة للمحكمة، حيث يجلس عصمت على كرسي خشبي خلف طاولة عتيقة، أثنى عصمت على هندامي الجديد، ومن هناك عدت إلى محل بائع الشاي.

كانت البداية في ربيع العام ١٩٧٨ عملت بعدها بجد مدة عام كامل، أحمل الصينية المحملة بأكواب الشاي الممتلئة ، والعودة بها فارغة، لكنني كنت أعود برفقة الزبائن الذين كنت أقنعهم بأن عصمت أفندي هو مفتاح دخولهم إلى مكتب كاتب العدل أو الضابط الفلاني... وإتمام معاملاتهم وهكذا كنت أتقاضى في اليوم ما لا يقل عن ربع دينار، لم تنضب حيلي ولم يعجز عقلي عن إيجاد مكان جديد لإخفاء نقودي ومدخراتي، لكنني هذه المرة تجنبت وضع البيض في السلة ذاتها، فقد كان لي عدة مغارات لإخفاء كنوزي الصغيرة فإن سطت "بابا ياجا" على مغارة تبقى لي غيرها.

وفي ربيع العام ١٩٧٩ تدبر لي عصمت ورقة بيان ولادة تثبت أني يتيم الأبوين، وبوساطتها استطعت الدخول إلى صفوف محو الأمية التي استحدثت في ذلك الحين، كنت أعمل حتى الثالثة عصراً، ثم أغادر باحة المحكمة إلى مركز محو الأمية لأتلقى دروسي. درست بجد، وكان لتشجيع عصمت أثر كبير. كان يقول لي: إن الزمن القادم

هو زمن المعرفة، والأميّ سيكون أسوأ حالاً من الأعمى. بعد ثلاث سنوات حصلت على شهادة الابتدائية فاكتفيت من تحصيل العلم بذلك القدر .

اندلعت الحرب العراقية الإيرانية وتغير كل شيء حتى مرتادي المحكمة ومشكلاتهم .

وفي أحد الأيام صحبني العم أبو عبد إلى بيته بعد انقضاء دوام المحكمة وانصراف روادها، علمت أن كنية "ابو عبد " صفة وهمية فلا وجود لعبد ولا وجود لأي عائلة، إنه رجل أعزب يعيش وحده في بيته المؤلف من غرفة وصالة.

دخلنا إلى البيت، فطالعتنا صالة متوسطة المساحة تتصدرها أريكة خشبية، وتتوسطها طاولة بأرجل قصيرة يقبع عليها مذياع ، ولا شيء يشير إلى أن امرأة مرت من هنا. الغريب أنه كان يستخدم الصالة غرفة نوم وصالة وغرفة معيشة، أما الغرفة الوحيدة فلم تكن إلا مكتباً متطوراً لتزوير الأوراق الرسمية وتزييفها والتلاعب بها.

كانت هناك طاولة كبيرة تتربع فوقها آلة كاتبة وحولها أحبار وأختام لكل دوائر الدولة ومرافقها.

فراشٍ وأقلام خط، وأحبار من كل الألوان والأنواع .

هذا هو عصمت الحقيقي، وما جلوسه تحت الشمس كل يوم في باحة المحكمة إلا فخاً لاصطياد الزبائن.

جلسنا بعد أن أعد لنا كوبين من الشاي على موقد نفطي صغير مركون في أحد زوايا الصالة، وراح يحدثني أن هذا هو الهدف الذي

أرادني أن أتغير من أجله ، وها قد آن الأوان ليبدأ بتعليمي الصنعة كوني صرت أجيد القراءة والكتابة.

أقضت مضجعي الخواطر، وراودتني الأفكار في تلك الليلة فلماذا يريد أبو عبد تعليمي فنّه وصنعته؟ هل يفعل ذلك من أجل جمال عينيّ، أم إكرامًا لقملاتي المختنقة برائحة الكيروسين نهاية كل أسبوع؟ لم أتوقف كثيراً، عند هذه المحطة، دونت في ذاكرتي أنه لا بد أن أقف على سبب تقريبه لي.

والأهم من ذلك أن أظفر بأسرع ما يمكن بأوراق ثبوتية لا تعود إلى صياح مجهول النسب. كان أبو عبد سلّمًا، وعليّ تسلقه.

في صباح اليوم التالي أخبرت بائع الشاي أني سأعمل مع أبي عبد كاتب عرائض، وأترك العمل لديه. لم يعترض الرجل، وتمنى لي حظًا طيبًا ، ثم مدّ يده في جيبه وناولني ورقة نقدية بنية اللون من فئة نصف دينار. قبِلتها منه بكل سرور كمقبرة لا ترد ميتاً، وهكذا بدأت العمل مع أبي عبد في تعقيب المعاملات؛كنا نعمل من الصباح وحتى وقت متأخر بعد الظهر، ثم نسهر حتى قبيل منتصف الليل ، ونحن نصنع أختاماً مزيفة من حبات البطاطا ، وحين تستعصي مَهمة بذاتها علينا نبري عود ثقاب ونرسم الختم على المستندات بخط اليد ... ويمضي الهزيع الأول من الليل بينما أبو عبد يعبُّ كأس العرق تلو الأخرى ولا يسكر أبدًا، أما أنا فلم أعاقر الخمر يوماً ؛ فأنا أقدس يقظتي ولا أخاطر بغياب حواسي.

تعلمت تقليد تواقيع مدراء الدوائر بالحبر الأخضر ، صرت أحفظ توقيع كل شخصية عن ظهر قلب ، علمت بعدها أن عصمت مصاب

بداء الزرقاء وارتفاع ضغط العين ونظره في تدهور مستمر، هكذا اتضحت الصورة لدي. لن يجد صانعًا أنسب من لقيط مثلي .

كان عامي الأول ككاتب عرائض ومزور كافيًا لإكسابي الكثير من الخبرات والمهارات، وصار لدي اطلاع على الكثير من الأمور القانونية، تغيرت مخططاتي، فحصولي على أوراق ثبوتية مزورة يعني أن أمضي حياتي متنقلاً من هوية إلى أخرى، الحل هو أن أحصل على سجل قيد رسمي، ولكن الأمر يحتاج إلى الكثير من المال، فكرت بسرقة عصمت، فعلمت أنه معدم يصرف كل ما يجنيه على الخمر والعاهرات . لم يكن لي حيلة سوى الانتظار حتى تسنح الفرصة لأخلع عني جلد صياح مجهول النسب.

وذات مساء ذهبت مع عصمت إلى بيته لإتمام بعض التواقيع والأختام على أوراق بغرض تسليمها إلى أصحابها وبعد ساعة من العمل طلب مني الانصراف؛ لأنه ينتظر ضيوفاً.

مشيت في طريق العودة إلى بيت العجوز، فلاح لي البيت في ركن بعيد من الحي معتمًا وكأنه خالٍ. عبرت البوابة الخارجية ثم الممر الرخامي الذي يخترق الحديقة، صاعداً الدرجات الثلاث المفضية إلى مدخل المطبخ، نظرت من شباك المطبخ فرأيت المفتاح معلقًا في الباب من الداخل. درت حول البيت لأتجسس عليها من شباك غرفة نومها ، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها مخدع " البلدامة" كان جناحها عبارة عن غرفة صغيرة داخل غرفة أكبر، ويفصل بينهما باب، كان الباب مواربا يومها، فظهرت من خلاله العجوز متربعة في الظلام على أرض الغرفة الصغيرة، وهناك فانوس نفطي صدئ يستقر

على طاولة منخفضة خلفها يقابلها صندوق أثري من خشب الزان، تغطيه سجادة مخملية قديمة بلون خمري تزينها رسوم الحيوانات، وبعض الأغطية والفرش مُنضدة ومرتبة فوق الصندوق، أزاحت الفرش عن ظهر الصندوق، ورمتهن أرضًا ثم أبعدت السجادة؛ لتخرج من صدرها مفتاحاً أدارت المفتاح في قفل صغير، ثم رفعت غطاء الصندوق الذي يشبه صخرة مغارة على بابا، تناولت من قعر الصندوق إبريقاً نحاسياً قديماً، ثم عادت إلى جلستها، و وضعته أمامها وشرعت تفرغ محتوياته في حجرها، ليرات ذهبية لا يقل عددها عن مئة ليرة ، بدأت بمداعبة الليرات، كانت تتحسسها ثم تقبض قبضة و وترميها من علو لتصطدم الدنانير الذهبية برفيقاتها، كأنها تريد أن تسمع رنين ارتطام الذهب بالذهب. بدت كأنها تمارس طقساً مقدسًا.

وقفت ساكناً في مكاني حتى انتهت من لعبتها، لأتأكد من إعادة الكنز إلى مكانه ثم انصرفت بهدوء أجوب الطرقات، والأزقة وحيداً بينما يعيد عقلي ترتيب أوراقه وخططه بناءً على ما رأيته ، ويعدّ العدة للمرحلة القادمة، فنهاية صيّاح باتت وشيكة.

عدت بعد ساعتين مانحًا سيدة المنزل الوقت الكافي لتستعيد هيئتها البائسة، وتخرج من مزاج المتعبد المختل الذي كانت تعيشه مع دنانيرها الذهبية الأثيرة.

طرقت الباب ثم دخلت ونمت مباشرة لأبدأ بتنفيذ خطتي في الصباح التالي، قررت منذ ذلك اليوم أن ألعب دور الولد البار بأمه، أن أكون لها ابن على الرغم من أنها لم تكن لي أُم في يوم من الأيام، ليس لأنني كنت أطمع منها بوصية أو منحة، أبدًا ؛ بل لأكسب ثقتها،

وأكون قريبًا منها إلى درجة تمكنني من تسديد الضربة القاضية في الوقت المناسب .

لا أدري كيف غاب عن بالي أنه من الممكن أن تكون العجوز الشمطاء تخفي كنزًا، فوجود كنز "القوري" أمر بدهي، وربما هنالك كنوز أخرى. أين كانت ستذهب بإيجارات البيوت الستة التي تملكها والمحال التجارية وإيرادات حقول القمح والشعير وبساتين الفاكهة والخضار، بينما لا تزال ترتدي ثياب جدتها وتقتات على حبتي "طماطم" ورغيف من الخبز في اليوم، كيف غاب عن بالي أن أسأل نفسي، أين كانت تذهب بالمال؟

الآن، عليّ أولاً أن أكسب ثقتها، ثم أُسدد ضربتي، وبعدها أحمل الكنز وأمضي إلى حيث أنزع عني جلد صيّاح، لأستهل حياةً جديدة.

كنت حينها شاباً في مقتبل عمري، ربما كنت قد ناهزت العشرين! فليس لدي بطاقة شخصية، ولا أوراق ثبوتية فالقانون العراقي لم يفطن إلى أمثالي حين سنّ قانون الأحوال الشخصية عام ١٩٥٩؛ لم يكن في وسع اللقطاء ومجهولي النسب أن يحظوا بفرصة للعيش؛ إلا كتلك التي يحظى بها كلب سائب. وهكذا كنت في نظر القانون وتعداد السكان؛ شخصية شبحية لا وجود لها في الدفاتر و السجلات. كنت أعمل كل يوم بجد أمام باب المحكمة، وفي المساء، أحمل إلى أمي التي اعتدت أن أناديها هكذا بعد واقعة "قوري الذهب" عشاءً فاخراً من كباب، أو دجاجة مشوية. كانت تكلفني معظم ما أجنيه في يومي . كل يوم أحمل لها ما لذّ وطاب من فاكهة ولحوم مشوية، في البدء كانت تنظر إليّ مرتابة متوجسة، وكأنها تخشى أن أدس لها سمًا في

الطعام، وكي أبعد عنها الشك، صرت أحرص على أن آكل قبلها، وأتعمد أن آخذ من الطعام ما يليها، وأتودد إليها قائلاً:

_ لن أجازي صنيعك بحقي يا أمي ما حييت، ثم تترقرق الدموع في عيني، فتحسبها دموع العرفان بالجميل، ولكنها في الحقيقة دموع أوجاع الذاكرة التي تئن في عقلي، كلما تذكرت الذل الذي تجرعته منها على مدار أعوام، ولعلها دموع التمساح يبكي فريسته.

مرت شهور طويلة، وأنا أعمل بجد؛ كي تأمن طرفي.

في شتاء العام ١٩٨٩ مرضت سيدة الدار فأخذتها إلى الطبيب الذي قال أنها مصابة بالتهاب رئوي حاد ، وقصور في عضلة القلب ، لا أستطيع أن أصف كمية المشاعر الذي أهدرتها في عيادة الطبيب، وأنا أفتعل الصدمة حين علمت أن قلبها متعب... بكيت بحرقة مدعيًا أنها كل ما أملك في هذه الدنيا، وتوسلت إلى طبيبها أن يبذل كل ما في وسعه لتعود إليها عافيتها .

تقرر بعدها أن ترقد في المستشفى أيام عدة من أجل تلقي العلاج. سوّلت لي نفسي أن أقتحم الغرفة في غيابها واستولي على كل ما تملك، لكنني آثرت أن أتريث قليلاً .

حجزت لها سريرًا في المستشفى، وأوصيت الممرضات بها خيرًا، فقانون المستشفى يمنع مكوث الرجال في ردهة النساء خارج ساعات الزيارة.

ذهبت بعدها إلى بيت عصمت حيث أمضيت ليلتي ، وحين انبلج الصباح ذهبت إلى "بسطتي" عند باب المحكمة ؛ لأعكف على كتابة "الكليشات" وإلصاق الطوابع ، وإعطاء المواعيد لأولئك الذين لا حلّ

لمعضلاتهم سوى استحداث أوراق وهمية بأختامي وتواقيعي المزيفة ومباركة عصمت .

حين شارفت شمس النهار على الرحيل، توجهت إلى المستشفى، تاركا عصمت عند بائع الخمور يساومه على زجاجات العرق التي رأى أبو عبد أنها باهظة الثمن فيرد عليه البائع :

_ إنه عرق خالص من بعشيقة.

فيجيب أبو عبد متهكمًا:

_ لا تحاول إقناعي، إنه نبيذ أبيض مستورد من إيطاليا.

أكملت المسير، وراح صوتاهما يتلاشيان بعيداً.

حين وصلت إلى المستشفى، وجدت العجوز في كامل قواها. تنتظرني لأعيدها إلى البيت، جلست على كرسي قريب، ووضعت لها الطعام على طاولة صغيرة عند رأس السرير.

_ كلي، يا أماه.

_ ليس الآن نتعشى في البيت. هل مررت بالبيت؟

_ لا والله، يا أمي، بتُ ليلتي عند عمي عصمت .

علت محياها صفرة تشي بقلقها حيال كنزها الثمين الذي أمضى ليلته وحيداً من دون حارس.

وأخيراً غادرنا المستشفى إلى البيت .

وحين وصلنا، رفضت أن تجلس في الصالة وتوجهت مباشرة إلى عرينها رافضة عرضي لمساعدتها وإسنادها. مشت وحدها متكئة على الحائط... وحين وصلت إلى غرفتها سمعت صوت الباب يغلق، ثم تلاه صوت القفل يُفتح.

عمدت إلى إلهاء نفسي بإعداد الشاي ، وترتيب طاولة العشاء الذي كان كباباً عراقياً، بصلاً وطماطم مشويين وبصلاً متبلاً بالسماق، وأرغفة خبز التنور الطازجة.

كنت عند الموقد أراقب الشاي الذي فاحت رائحته حتى ملأت أركان البيت ، حين عادت لاهثة إلى الصالة ، توجهت مباشرة إلى حيث ينتظرها العشاء على الطاولة الخشبية ، وانكبت على التهامه بنهم. أخبرني صوت مضغها للطعام بشراهتها المعهودة أن كل شيء بخير، وأن كنزها لايزال في مكانه. عدت إلى الصالة أحمل كوب الشاي "السنگين" خاصتي. جلست أمامها، ابتسمت وقلت بمكر :

_ صحة وعافية . فلم ترد.

بعد العشاء ذهبت إلى الصيدلية لأحضر الدواء الذي أوصى به الطبيب. أعطاني الصيدلاني علب الدواء ، وكان يكتب على أغلفتها، إلى أن وصل عبوة زجاجية صغيرة بغطاء بلاستيكي محكم ، توقف الصيدلاني برهة قصيرة، وراح يشرح لي أهمية الانتباه إلى الجرعة ، وعدم تجاوز الحد المقرر من قبل الطبيب المعالج ؛ لأن هذا قد يقضي على المريض في لمح العين.

خفق قلبي بعنف، حين سمعت كلمات الصيدلاني، وخرجت من عنده مباشرة إلى دكاني الذي استأجرته منذ بضعة أشهر للقيام ببعض أعمال التزوير بعيداً عن أنظار عصمت ، وهناك جلست أرتب أفكاري. وأحكم خطتي لتكون جريمتي جريمة كاملة

عدت بعدها إلى البيت أحمل على كتفي حقيبة قماشية ملأتها بأوراق لا قيمة لها، وحين وصلت كانت سيدة البيت لا تزال في الصالة ،

ناولتها أدويتها الواحد تلو الآخر وحين وصلت إلى عقار "ديجيتاليز" قلت لها:

_ هذا تتناولين منه عند الحاجة، وكلما شعرت أنك لست بخير تأخذين حبة ، وإن لم يتحسن حالك تُلحقينها بحبتين أخريين ...

ولحسن حظي أن "بابا ياجا" لم يكن لها صديقات، ولا تكلم جارة ولا قريبة، وهكذا لن ينكشف مخططي مهما حصل.

مضت الأيام وأنا أدخل إلى البيت حاملاً حقيبتي وأخرج معها، حتى اعتاد كل من يراني على وجودها معلقة على كتفي.

انتهى هذا الجزء من المهمة على خير، و بقي الجزء الأصعب. عليّ أن أتصرف بسرعة قبل أن تستعيد عافيتها، ويكون في مقدورها التصرف بالذهب أو تغيير مكانه.

وجاء اليوم الموعود، دخلت إلى البيت، فإذا بصوت أنفاسها المضطربة يستقبلني ما إن دلفت من باب البيت، وناديت:

_ أمي، أمي...

لم أتلق إجابة سوى حشرجات وهمهمات غير مفهومة... انتهزت الفرصة واقتحمت غرفتها التي تشبه مقبرة فرعونية تحرسها آلاف اللعنات، فإذا بها ممددة على سريرها ولا تكاد تستطيع أن تشهق أنفاسها، أشارت إليّ أنها تتألم بشدة، فتجاهلت عامدًا مجمل إشاراتها خاصةً تلك التي عنت بها :

_ خذني إلى المستشفى.

تفقدت علاجها فاكتشفت أنها قد أجهزت على معظم الحبوب في زجاجة "الديجوكسين" خلال أسبوع. أيقنت أنها لحظة الحقيقة . كانت

تلفظ أنفاسها الأخيرة. خرجت من عرينها من دون أن ألتفت إلى توسلاتها، وفي الصالة كان عشاؤها ينتظر على الطاولة ذاتها ككل يوم. وضعت "قوري" الشاي على الموقد، وجلست لتناول عشاء الحرية التي سأقطف ثمارها قريبًا ، ختمت وليمتي بكوب شاي "سنكين" تفوح منه رائحة حبات الهيل ...

غابت بعدها أصوات أنفاسها المتقطعة عن أجواء البيت، لم أعد أسمعها.

غسلت يديّ ، وتوجهت إلى مخدعها ، ألقيت نظرة عليها، كانت كريهة في موتها كما في حياتها ... وإمعاناً في التأكيد جسست شريانها، إنها ميتة!

ومن دون تفكير استللت "الدوبارة" المقدسة المعلقة في جيدها تلك التي تحمل مفتاح الكنز.

همست وأنا أسدل الغطاء على طلعتها البغيضة:

_ إلى جهنم ...هذا يكفي، إنها ساعتي أنا، أما أنتِ فوقتك انتهى.

أزحت مناماتها والسجادة الأثرية عن ظهر الصندوق ، ثم أدرت المفتاح في قفله العتيق، وما إن رفعت غطاء الصندوق حتى أطل عليّ كنزي ببريقه الذي يخطف الأبصار . أفرغت محتوياته في كيس قماشي، كنت قد أعددته منذ شهور من أجل هذه اللحظة، قمت بعدها بمسح سريع وعالي الدقة لكل المخابئ المحتملة في الغرفة ، فلم أجد سوى صرة قماشية مثقلة "بالمخشلات" الذهبية تزن قرابة الكيلو غرام ، وبضعة رزم من العملات الورقية من فئة خمسة وعشرين ديناراً ألحقتها باليرات

فـي الكـيس القماشـي ، تركـت فـي حزانـة الثيـاب رزمـة مـن رزم المـال وقـلادة وزوجـين مـن الأقـراط الذهبيـة تحسـباً لظهـور ورثـة، قـد يرتـابون إذا وجـدوا فقيـدتهم مفلسـة بالكامـل ثـم أحكمـت إغـلاق الكـيس، و دسسـته وسـط زحـام الأوراق فـي حقيبتـي وحملـت زجاجـة "الـديجيتاليز" ، وبطاقـة مغـادرة المستشـفى، وأودعتهمـا فـي جيبـي تحسـباً لأي شـك قـد يسـاور أحـدهم حـول أسـباب الوفـاة ، أزحـت بعـدها الغطـاء عـن وجههـا ، وأعـدت مفاتيحهـا إلـى حيـث كانـت ، وأعـدت كـل شـيء إلـى سـابق عهـده اسـتعداداً لمسـرحية الغد.

خرجت من مخدع العبودية إلى بهو الحرية أحمل ديتي على كتفي، ثم غادرت المنزل بكل هدوء وكأن شيئاً لم يكن، مشيت مترنحاً وأنفاسي متثاقلة. يُقالُ إن الأرواح التي نزهقها تظل جاثمة بثقلها على صدورنا حتى نلحق بها. وصلت إلى دكاني المظلم، أشعلت النور وعلى الفور خبأت كنزي في فتحة من المفترض أن تكون معدة للتبريد.

جلست بعدها عاكفًا على تزوير نماذج إجازات للجنود، وكتب عدم تعرض بعد أن ازداد الطلب عليها إبان الحرب.

وبعد ليلة طويلة انبلج الصباح، سرت متثاقلاً وأعدت حقيبتي إلى مكانها على كتفي كما اعتادت أن تكون ، بيد أنها كانت تخلو من كنزي الذي أودعته مخبأه...

وصلت إلى باب المحكمة، وبعد ساعة أمضيتها جالسًا خلف طاولة عصمت ، لملمت أوراقي ، وحملت حقيبتي ، وقصدت بيت " البلدامة"

، وحين وصلت بدأت بطرق الباب طرقات خفيفة ، ثم أقوى وأقوى، حتى تجمع حولي بعض المارة والجيران.

قال أحدهم:

_ أليس معك مفتاح؟

_ ..... .

خلص الجيران إلى كسر الباب، اندفعت إحدى الجارات الفضوليات إلى داخل البيت، فوصلت مخدع العجوز قبلي وقبل أن أصل إلى عتبة الغرفة ندت عن الجارة صرخة:

_ يبووووووو.

كانت هذه الصرخة تعني إعلان وفاة ... وهنا انهارت دفاعاتي، و لا أدري كيف جادت عيناي بكل هذه الدموع! هل أنا قذر إلى هذا الحد لأقتل القتيل في المساء، ثم أبكيه في الصباح؟ لا أدري علامَ كنت أبكي ! ربما كنت أبكي أمي التي رمتني في باب المسجد لأصبح لقيطاً ولصاً قاتلاً!

لم تمض ساعات حتى وصل ثلاثة رجال أشداء... يرتدي اثنان منهم زيًا عربياً، أما الثالث فكان يرتدي سروالاً وقميصًا مجعّداً ، وكأنه خرج لتوه من مؤخرة كلب. ادَّعَوا أنهم أبناء عمومة المرحومة، مع أنني لم أرهم طوال سنواتي التي أمضيتها معها.

خاطبني أكبرهم :

_ من أنت؟

تطوع أحد الجيران بالإجابة نيابة عني.

_ إنه الولد اليتيم الذي ربته، المسكين كان بارًا بها.

ثم دار حديث جانبي بين الحضور عن الكباب الذي أحضرته للمرحومة، وكيف أخذتها إلى الطبيب، وكم كنت باراً بها.

انخرطت بدوري في موجة بكاء عارم، إمعانًا في تقمص دور الولد المفجوع بأمه ، لم تراودني أيّ مخاوف؛ فأبناء العم المزعومون لم يحضروا إلا لتقاسم الغنائم. شكرت ذكائي الذي ألهمني أن أترك بعض النقود والحلي الذهبية في خزانة ثياب الشمطاء كطعم ينشغل به ورثتها الحمقى.

تمت مراسيم الدفن، وفي طريق عودتنا إلى البيت التفت إليّ صاحب القميص المجعّد، قائلاً:

_ تستطيع أن تمضي في حال سبيلك الآن.

تصنّعت الصدمة ، على الرغم من أن قلبي كان يرقص طربًا. ها أنا أنال حريتي وقريباً سأسلخ عني جلدي الذي ضاق بي، ولم يعد يناسبني.

ترجلت بعد دقائق قليلة من "البيك أب" التي أقلتنا إلى البيت بعد أن حملت جثمان المرحومة إلى مثواها الأخير . أبناء العم كانوا خائفين من أن أقاسمهم التركة، ولم يعلموا أني سرقت الجمل بما حمل ولم أترك لهم إلا الفتات.

مشيت إلى دكاني، لملمت أختامي وأحباري، أما آلتي الكاتبة فقد تركتها مستقرة فوق حفرة تضم كنزي .

وقبل الفجر لبست ثياباً عسكرية ماركة "أبو خليل" وبسطالاً يصل وزنه إلى ثلاثة أرباع الكيلو غرام لكل فردة، ودسست نموذج إجازة باسم

مستعار ومعه هوية ودفتر خدمة عسكرية وكلها تحمل صورتي واسمي الجديد الذي سأستخدمه في هذه المرحلة الانتقالية:

محمد جاسم محمد.

تركت كيس الكنز في مخبئه وأمعنت في التمويه...

لم أحمل معي غير رزمتين من المال خبأتهما في جيب سري في ثيابي الداخلية، كما خطت أربعة دنانير ذهبية إلى بطانة سترتي العسكرية تحسباً لأي أمرٍ طارئ.

انطلقت بعدها متوجهاً إلى محطة القطار، الذي سيحملني إلى بغداد.

كان الناس في المدينة كانوا كجندي يلتحق برفاقه في الجبهة، وفي بغداد استقبلتني العيون مرحبةً بعودة أبي خليل من ساح الوغى. وفي الحافلة التي أقلتني إلى البصرة كانت العيون تنظر إلي نظرات وداع تشبه تلك التي يلقيها الناس على جثامين الموتى قبل أن يواروهم الثرى. و هكذا لا شيء أسهل من الضياع.

في البصرة كان الضياع أسهل بكثير. الجميع ينصهر هناك في البوتقة الغافية على رأس الخليج. الغجر والعرب، والكرد، والغربية، والشرقية، الكل هناك يقف على الشاطئ يترصد أخبار الحرب، وربما هناك من ينتظر أن يقذفه الخليج بمحارة. لم يكن لدي من الوقت ما أضيعه فقد كنت كجنين علق في رحم الحياة مدة عشرين عاماً أو أكثر، لقد كبرت بما يكفي لتلفظني هذه الملعونة، لتلدني كما فعلت مع باقي أبنائها.

توجهت إلى العنوان الذي دلني عليه عصمت، حين أخبرته أن صديقاً لي من جنسية عربية يريد أن يحصل على جنسية عراقية وأوراق

ثبوتية كاملة صادرة بشكل رسمي. سألت عن بيت "جلّاب أبو النفوس". فدلني عليه صبية حفاة كانوا يلعبون في طريقٍ مترب، يبدو أن جَلّاب شخصية معروفة.

قادني الصبية إلى بيت مشيد من جريد النخل وسط بستان كبير تتطاول فيه النخيل كناطحات سحاب. تجلس عند بابه سيدة في منتصف عمرها ببشرة سمراء كسمرة الأرض وطول فارع وتبدو عليها علائم الشدة التي أجبرتها عليها قسوة الحياة.

_ من أنت؟

_ جاسم من طرف عصمت " أبو عبد ".

وما إن أكملت عباراتي، حتى أطل من داخل الكوخ رجل أربعيني، كان شعره أجعد وقد خطه الشيب ، وأنفه مفلطحاً ، وعيناه واسعتين مدورتين ، وبشرته داكنة، وفمه يستطيع ابتلاعي أنا وحقيبتي... ابتسم جلّاب في وجهي فافتر ثغره عن أسنان تنصع كلؤلؤ الخليج الذي تحدث عنه السياب.

علمت بعدها أنه يعمل فراشاً في دائرة النفوس وسمساراً يلتقط الزبائن الذين يبحثون عن سبلٍ غير قانونية.

بعد الغداء، جاء الشاي "السنگين"، وهنا بدأ الحديث، أخبرته أنني أريد أوراقاً رسمية ، ولا أريد أن أعيش حياتي منتقلاً من هوية مزيفة إلى أخرى، أريد أن يكون لي قيد وصحيفة وسجل رسمي، وموقف من الخدمة العسكرية.

_ هذا سيكلفك الكثير.

فهمت ما كان يرمي إليه أبو سمرة، كان يريد أن يقع على القريحة، بمعنى آخر كان يريد أن يعرف كم أملك من المال؟

أخبرته أنني لا أملك شيئًا، لكن سيدة تكبرني عشرين عامًا ترغب في أن تتزوجني ، وقد تكفلت بكل شيء ؛ لأنها تريد أن تقدمني لأهلها على أنني ابن عائلة.

هزّ جلْاب رأسه بين مصدق ومكذب.

بتُّ ليلتي والليالي التي تلتها في البستان الذي يحرسه جلاب وزوجته. بتّ تحت سماء البصرة وتحت نجومها و ضوء قمرها وعلى صوت الراجمات والقنابل وقذائف المدافع التي أعانتها هدأة الليل لتصل إلى مسامعنا.

وبعد أيام عدّة التقينا عجوزًا يعمل في أرشيف دائرة النفوس، كانوا ينادونه حجي جبر. أخبرني جبر أن عائلة مؤلفة من رجل وامرأة توفيا في حادث سير و أنّ ابنهما مازن المولود في العام ١٩٦٥ فُقد منذ كان في السابعة من عمره، إذن، سأكون أنا مازناً .

_ ومن سيضمن لي صحة كلامك؟

_ ستأتي معي ، وترى بنفسك . كل شيء سيكون على يدك، ولكن خمسة عشر ألف دينار عدًا ونقدًا قبل أن تستلم أوراقك.

بعد مساومة طويلة ومجهدة تمكنت من تقليص المبلغ إلى عشرة آلاف دينار .

ما إن حصلت على هوية مازن، حتى توجهت برفقة جلّاب إلى طبيب عسكري، للحصول على تقرير طبي يعفيني من الخدمة العسكرية، الطبيب كان جشعًا فلم يرضَ بأقل من خمسة عشر ألف،

المهم حصلت على تقرير موقع ومختوم بختم الطبابة العسكرية يثبت أنني مصاب "بالسنسنة" المشقوقة المخفية، ومعه تقارير لجنة طبية مكونة من العميد الطبيب فلان الفلاني والنقيب الطبيب علان العلاني... إلى آخره... والتقرير مرفق بصور الأشعة السينية التي تظهر تشوهًا في العمود الفقري يمنع تجنيد من يحملونه حسب القانون العراقي.

في دائرة التجنيد كان الأمر أسهل بكثير، إذ تولى جلّاب نثر الفتات على كل من يصادفنا، فهنا دينار وهناك ورقة بخمس وفي أقصى الاحتمالات "نفرين كباب" لغداء ضابط التجنيد. وهكذا انتهت إقامتي في عروس الخليج التي دخلتها كأبي خليل وخرجت منها...

مازن نافع عطية

صرفت كل أوراق النقود التي خبأتها في جيوبي السرية والبالغة ثلاثون ألف دينار كانت تكفي يومها لشراء بيت في بغداد؛ لكنني اشتريت لنفسي جلدًا أعيش فيه، اشتريت وجودي الذي كنت في قرارة نفسي أجده لا يستحق ما أنفقته عليه . ظلت ليراتي الذهبية الخمس المخبئة في بطانة سترتي العسكرية ساكنة في مكانها إذ لم أحتج إليها، عدت أدراجي إلى مدينتي ببزتي العسكرية ذاتها وأوراق أبي خليل وأنموذج إجازة جديد يدوم سبعة أيام أخرى.

وهناك توجهت إلى الدكان حيث خبأت كنزي...أقفلت الباب ، وقصدت مكان الكنز، شكرت الطبيعة التي لم تشِ بسري لأنس ولا جان حين وجدت كيسي مستقراً في مكانه في الحفرة ذاتها تحت الآلة الكاتبة .

كنت قد اشتريت من الميناء في البصرة حقيبة لها قعر مزيف أو حقيبة بقعرين أحدهما سري وآخر ظاهر للعيان، جمعت الأختام والأحبار ودسستها في فتحة التبريد، أما الآلة الكاتبة فقد تركتها في مكانها... وضعت ذهب العجوز وليراتها في الجيب السري ثم رصصت ثيابي وأسمالي البشعة في الجزء المعرض للتفتيش، وعدت حالاً إلى المحطة، ولكني هذه المرة قصدت الموصل.

ومرة أخرى صحبت معي وصايا عصمت إلى نينوى، كما فعلت حين ذهبت إلى البصرة نزلت في فندق في شارع حلب. كانت الأيام الأولى صعبة جداً. إذ كان يتوجب علي أن أحمل حقيبتي أينما حللت وحيثما ارتحلت، حتى قادني أحد أصدقاء عصمت إلى بيت صغير في ساحل

المدينة الأيسر كان معروضاً للبيع ، تمت صفقة الشراء. وفي غضون أيام رتبت أقفال مداخل البيت ، وأحكمت إغلاق نوافذه وكل منافذه؛ لأتحرر من عبء الحقيبة التي كادت تقتلع كتفي ، يا لثقلها وكأن العجوز الشمطاء كانت محشورة في داخلها .

نشرت بين الجيران والأصدقاء أني محامٍ، و درست القانون في جامعة الإسكندرية في مصر. وأنني من مواليد البصرة وأن جذوري من الموصل، لكن عائلتي هاجرت إلى البصرة في أواخر القرن التاسع عشر . هكذا بكل بساطة. لا شيء أسهل من الضياع.

وفي أقرب فرصة اشتريت آلة كاتبة وجهازاً للنسخ، ومجموعة من الأحبار وكان نتاجي الأول هو شهادة إجازة في الحقوق باسم مازن نافع عطية ، كانت أختام جامعة الإسكندرية لا تزال مطبوعة في ذهني فلطالما زورت أوراقاً وشهادات للوافدين المصريين الذين أغرقوا الشارع العراقي في ثمانينيات القرن العشرين.

كان ذلك في مطلع العام ١٩٨٨، حيث بدأت العمل في باب المحكمة، كنت أعمل كمحام، ولكنني في الحقيقة كنت مجرد معقب معاملات. والأوراق التي يصعب الحصول عليها بطريقة قانونية، كنت أعِد أصحاب الشأن أنني سأتدبرها لهم، وساعة التسليم كنت آخذ أتعابي أنا المحامي، وأتعاب الحرفي الفنان الذي زور الأوراق التي يصعب كشفها. وهكذا تقدمت بي العجلة حتى سمعت من أحد رواد المحكمة قصة صدّيق آغا الرجل الثري الذي ملك ذات يوم ما ينيف عن نصف ذهب الموصل وأراضيه وأمواله ، وكيف أن صدّيق هذا له وريثة وحيدة هي حفيدته مريم التي آل إليها كل شيء بعد وفاة أمها،

وهجرة أعمامها (المنتمين إلى تيار إسلامي معاد للسلطة) إلى خارج البلاد .صار كنز صدّيق آغا المتمثل في مريم هو هدفي القادم بعد كنز ديالى الذي تكفل بمنحي الحرية وحملت ما تبقى منه إلى نينوى.

بدأت بحثي الدائب عن مريم حتى تعرفت إلى زوج خالتها؛ رجل عسكري أقعده عن الخدمة بتر قدمه اليسرى التي فقدها في معركة المحمرة في بداية الحرب العراقية الإيرانية . التقينا في مقهى في سوق الشعارين في المدينة القديمة. قدمت له نفسي على أنني محامٍ من عائلة موصلية مولود في البصرة .عرضت عليه خدماتي على الفور . وما إذا كان لديه أي معاملة في "الطابو" أو في مديرية الزراعة أو دائرة الأملاك فمعارفي كثر وفي وسعي مساعدته .الرجل الساذج ابتلع الطعم بسهولة، وراح يسرد لي قصة ابنة أخت زوجته التي ورثت عن أمها كذا وكذا ، لم يعلم محدثي أنني قد حصرت ميراث مريم بالكامل وقيمته نقداً حتى قبل أن ألتقيه.

وبعد أيام قليلة التقيت بمريم، الفتاة المتغطرسة طالبة الطب حفيدة صديق آغا، كرهتها منذ اللقاء الأول كانت تذكرني بالعجوز التي ربتني، تلك التي قتلتها بجرعة مفرطة من "الديجيتاليز" كانت تعاملني كأنني كلب، تماماً كما كانت سابقتها تفعل. فتاة سمراء لا تملك أي مقوم استثنائي إلا فطنتها الملعونة، كانت تنظر إليّ فأشعر أنها على وشك أن تناديني صياح. أن تسلخ عني جلدي الجديد وتعيديني إلى الشارع ثانيةً، عبثاً حاولت الإيقاع بها وأسر قلبها. لكنها ذهبت إلى حبيبها القديم في نهاية المطاف.

وكعادتي، لا أضيّع وقتاً. مضيت في طريقي أبحث عن طريدة جديدة.

الصدفة هي التي قادتني إلى يمامة، ووضعتها في طريقي كانت علاقتي بها تشبه كل المراهنات التي أقدمت عليها منذ أن قررت أن أنسلخ عن رحم حياتي الأولى.

طفلة مدللة ابنة رجل ثري وسياسي بارز خرج من تحت ركام الفقر المدقع والجهل إلى أضواء عالم السياسة والسلطة والمال، إذ كان والد يمامة قبل العام ١٩٦٨ شاباً فقيراً.

لم يكد يكمل الدراسة الإعدادية حتى تعرف إلى بعض الشباب الثوريين الطامحين إلى التغيير، فقامر بحياته التي لا يملك سواها، وانضم إلى صفوف الحزب. وفي شهر تموز، الذي يشبه كل تموز مر على البلاد منذ فجر الخليقة. جاءت الثورة، ثورة تموز، دموزي الإله الذي لا يموت، الإله الذي يبعث بعد الموت... ثورة الخلود التي جثمت على الصدور حتى خُيِّل إلى الشعب أنها ستدوم حتى ينفخ في الصور.

نجحت الثورة وكان الشاب سالم عبد الرحمن سالم أحد مفجّريها، ومن ضمن المخططين لها ومن قادة الصف الأول. صعد نجم الشاب بسرعة ضوئية. على الرغم من أنه كان لا يزال طالباً في السنة الأخيرة من كلية الآداب قسم التاريخ . وكان لزاماً عليه، حتى تكتمل صورة السياسي الثرى المتنفذ– يد الله على أرض نينوى، أن يقترن بفتاة من عائلة ثرية. ولأن البطل لم يكن من حملة الدماء الزرقاء كان عليه أن يتخلى عن بعض مواصفات زوجة المستقبل فكونه قيادياً في الحزب الحاكم لا يعفيه من تبعات تاريخ العائلة الحافل بالفقر والفاقة، وهكذا لم يظفر بذات العلم ولا بذات الجمال واكتفى بالسيدة سهام، المدببة القميئة التي لا تكاد تفك الخط، لتوضع الصورة في إطارها

الصحيح. كان العروسان يمثلان إحدى أدق صور اجتماع النقيضين، فالدكتور سالم كما يناديه الجميع بعد أن حصل على دكتوراه فخرية في تاريخ حضارة وادي الرافدين إثر نقاش لطيف جمعه بفخامة الرئيس أعجب سيادته بكم المعرفة وسيل المعلومات المتدفقة في عقل سالم وذهنه ، فما كان منه إلا أن أمر بمنحه الدكتوراه الفخرية في تاريخ حضارة بلاد ما بين النهرين.

كان سالم عبد الرحمن رجل علم وعمل. لا يعرف من الحياة سوى أداء ما هو مطلوب منه. الواجب قبل كل شيء، وحين يفرغ من أداء واجباته كان يعتكف في مكتبه منكباً على قراءة الكتب وخاصة تلك التي تخص التاريخ. تاريخ الحضارة وفجر السلالات، وسومر وأكد. كان في مقدوره أن يحدثك ساعات طويلة عن سنحاريب وآشور ناصربال والسبي البابلي وكأنه كان هناك. حتى ليُخيل إليك أن سنحاريب هو عمه الذي يقطن في البيت المجاور لبيتهم.

أما النصف الثاني من الصورة، السيدة سهام، فهي رأس الحربة. الطرف المدبب في هذه الشراكة والعنصر المفسد للمعادلة. إنها لا تعرف لغة سوى لغة الكراهية، و قد منحها ارتباطها بالرفيق الدكتور سالم عبد الرحمن السلطة الكاملة لممارسة هوايتها الوحيدة

"الإيذاء " الذي تسبقه دوماً الكراهية من دون مسوغ . على الرغم من شخصيتها البغيضة وكونها لا تحمل أي إحساس إيجابي لأي فرد خارج أسوار بيتها، إلا أنها كانت حريصة كل الحرص على الظهور بوجه السيدة الراقية صاحبة اليد المحسنة؛ لكن الحقيقة لا تخفى عن العيون وما في القلب تفضحه الأفعال.

فقد كانت تعاني من إحساس عارم بالنقص عند وجودها إلى جوار أي أنثى من شأنها أن تهز عرشها؛ ولأنها محدودة التعليم إلى أبعد حد، كانت تمقت كل امرأة نالت حظاً من التعليم. ناهيك عن كراهيتها وغيرتها من كل جميلة وكل ثرية وسيدة مجتمع ، إلى ذلك كانت تزدري كل فقيرة ومعوزة وتتهكم عليها ، وهكذا صرن بنات حواء كلهن في مرمى سهامها. الجميلات منهن والغنيات والمثقفات والفقيرات. كل أنثى هي عدو افتراضي للسيدة سهام .

وفي أثناء ترددي إلى منزل السيدة وجدان في الفترة التي كنت فيها أتابع حصر تركة عائلة مريم، تعرفت إلى أحد جيران السيدة وجدان الذي ساعد في توسع دائرة معارفي في المدينة؛ رجل اجتماعي يعرف أسر المدينة كلها، فوجئت وقتها أنه كان يفتخر بي، بينما يقدمني إلى أصدقائه، قائلاً:

_ مازن صديقي بصراوي.

فيمطرني الحضور بوابل من عبارات الترحاب والحفاوة .

كنت أظن أن كوني وافداً من مدينة بعيدة، سيقصيني عن مجالس الموصل لمدة طويلة، لكن اتضح أن الاندماج أمر سهل ما دامت أكاذيبي جاهزة وقد حفظتها جيداً .

وفي أحد جلسات المقهى حيث كان صديقي الجديد يصحبني كل يوم عرفت كل شيء عن عائلة سالم عبد الرحمن، وبسرعة حددت الهدف القادم وهو النفوذ إلى قلب وريثة المال والسلطة، ولكن الأميرة هذه المرة كانت محاطة بحراسة شبه دائمة، ولها سائق شخصي يصحبها إلى الجامعة ثم يقلها عائداً بها إلى فيلا والدها.

كان عليّ أن يكون لي أصدقاء جدد في الكلية التي كانت ترتادها، وتحديداً في القسم الذي تدرس فيه كي يكي يكون لدي سبب مقنع للظهور المتكرر في أماكن وجودها، وهكذا بدأت الحسناء تلحظ وجودي وبعد شهر من المثابرة ألقيت عليها السلام بينما كانت تجلس في مكان ما في مركز الجامعة مع إحدى رفيقاتها التي استأذنت للانصراف، ما إن وافقت يمامة على طلبي الانضمام إلى مجلسها .

عرفتها بنفسي

_ مازن، محام

_ أعرفك جيداً، ألست محامي مريم صدّيق؟

أجفلني السؤال، إذا اكتشفت أنني لست المستر "بوارو" الوحيد في هذه المدينة.

_ آه أجل، كنت محاميها.

_ والخطبة ؟

هنا صُعِقت! هل كانت يمامة تلاحقني، وتتابع أخباري قبل أن أعلم بوجودها ؟

_ إشاعات صدقيني، الدكتورة مريم ليست من نوع الفتيات التي أحب.

_ تلك الزرقاء لا أظنها تُعجب أحداً، قالت يمامة في كراهية تغلفها سخرية شفيفة.

تكلمنا أنا ويمامة قرابة نصف ساعة، قبل أن تنظر إلى ساعتها، وتستأذن بالانصراف متحججة أن السائق على وشك الوصول وعليها انتظاره أمام باب الجامعة.

كانت المسافة بين قسم الهندسية المعمارية، وبوابة جامعة الموصل لا تتعدى الدقيقتين على الأقدام . مشينا معاً، ثم ودعتها عند الباب ومشيت في حال سبيلي غارقاً في أفكاري وتحليلاتي، يمامة لم تكن تتتبع أخباري فمن أكون أنا لِأحوز اهتمامها ، لعلها كانت تنقب في آثار مريم غريمة طفولتها، فكنت أنا اللُقية التي عثرت عليها مصادفة.
توالت لقاءاتي بيمامة التي كانت مريم تحتل معظم أحاديثها، في البداية كنت أظن أنها تكره مريم كما أكرهها أنا ؛ لأنها متعجرفة ولا تأبه لأحد، حتى سقط في يدي مفتاح القصة بالكامل. إنه أيوب زميل الفتاتين منذ سنوات الدراسة الأولى. إنها فقط مسألة اثنين مقابل واحد . الشاب الوسيم خالف العادات والأعراف وآثر السمراء على الشقراء المنمنمة. فقد كانت الفتاتان رفيقتيه في الدراسة الابتدائية. ثم افترقوا وذهب كل منهم في طريق، وبعدها تقاطع طريق مريم مع أيوب في كلية الطب الأمر الذي يغيظ يمامة باستمرار، ذلك أنها لم تفلح مع كل مساعي أصدقاء أبيها ونفوذه إلا في الحصول على معدل يؤهلها لدخول كلية الهندسة. قسم هندسة الري والبزل؛ ولأن الوالد كان عضواً مؤسساً في الحزب، ومن ثوار الصف الأول. كان في مقدورها التحويل إلى قسم الهندسة المدنية. والتي لم تكن لتشم رائحة النجاح فيها لولا وساطات الوالد. حسبما أفادت مصادري.
كانت مريم هي العدو الافتراضي ليمامة، مريم التي تظفر بقرب أيوب دوماً، وتملك مفاتيح قلبه.
أما أنا فما يشغلني في هذه القصة، أمران لا ثالث لهما : ثروة سالم عبد الرحمن، ونفوذه ، أما أيوب ذلك الغبي الغر المتبجح بأفكاره

الاشتراكية وإيمانه العميق بجدوى التوزيع العادل للثروة، وكيف أن السلطة ملك للشعب. ذلك العاشق المحظوظ الذي ركع تحت قدميه كل من السلطة والمال . لم أكن لأحمل له أي ضغينة. طالما لم يعترض طريقي.

عدّتني يمامة جزءاً من غنائم حربها ضد مريم التي لا تدري شيئاً عن تلك الحرب . وهكذا تمسكت بي ، ويوم أعلن أيوب خطبته لمريم بعد تعافيه من إصابة حرب ألمت به في فبراير ١٩٩١ جن جنون يمامة وبعد أسبوع قالت لي، وبكل بساطة:

_ متى ستأتي لتطلب يدي من بابا.

_ اليوم إن شئتِ . أجبت .

وبعد أيام كنت في صالون الرفيق المناضل

سالم عبد الرحمن، و أطلب يد ابنته! جزء مني خَشِيَ عاقبة هذه الخطوة ماذا لوكان السيد سالم عبد الرحمن بمزاج يسمح له بالتنقيب في تاريخي والوقوف على حقيقتي، ومن أكون؟ ماذا لو عرف سري، كانت تلك ستكون نهايتي الحتمية ! لكنني أقدمت عليها ككل المخاطر التي مررت بها.

تمت المقابلة من دون أي حوادث تذكر ، وبعد بضعة ليالٍ تلقيت هاتفاً من مكتب الرفيق يطلب مثولي في الفيلا في منطقة المجموعة الثقافية غير بعيد عن مقر جامعة الموصل.

وهكذا دخلت الفيلا مرة أخرى متجاوزاً الحرس المدججين بالسلاح، والمرابطين عند بداية الشارع الفرعي المؤدي إلى فيلا الرفيق ، ومن ثم الحرس الجالسين عند المحرس المستقر أمام بوابة الفيلا الرئيسة

والذين اكتفوا بسؤالي عن اسمي، و ما إن نطقت به حتى منحوني تذكرة الدخول إلى الجنة ، يبدو أن سيدهم كان أوعز إليهم بالسماح لي بالمثول بين يديه ما إن أصل. وأخيراً وصلت الصالون استقبلني أحد العاملين في المنزل وهم كُثُر... وقدم لي من الضيافة ما لا يتناسب مع ما كانت تعيشه البلاد من حصار اقتصادي. كحلوى التوفي والبقلاوة و المن والسلوى والمكسرات المحمصة بكل أنواعها، كان الخوف يطرق أبواب عقلي ونوافذه فيسد علي كل منافذ التفكير، يجب ألا أبدو شرهاً أمام هذه الأطايب كعادتي، فسلامتي اليوم على المحك. فقد أكون أو لا أكون. كلمة واحدة من الرفيق ستنهي رحلتي في غياهب أحد السراديب في العاصمة كأي سجين لا يحمل أي إثبات شخصي وكلمة أخرى ستجعلني ذراع السلطة ، وأحد أبناء الحزب وأحباءه ، هذا ما كان يشغلني فعلى أي زر سيكبس سالم عبد الرحمن ؛ زر الجنة أم زر النار .

سرى بعض الضجيج خارج الصالون، صوت رجولي يختلف عن صوت الرفيق. اختفى ذلك الصوت، ودنت أصوات طرقعة كعوب تدق أرضية الممر الرخامية، تختلط مع صوت سالم عبد الرحمن الشبيه بصوت زحزحة بلاطة اسمنتية ثقيلة على أرضية إسفلت، ولج السيد الرفيق و السيدة الكبيرة وخلفهما ابنتهما.

انتظم الجميع في صف واحد، كانت سهام إلى يمين سالم و يمامة إلى يساره. افتتح الرفيق الحديث قائلا :

_ لماذا لم تحضر أهلك؟

_ أنا يا سيدي لا أهل لي مقطوع من شجرة.

_ نعم، نعم . قال كمن يمثل دور أبي العُرّيف .
وهنا تدخلت السلطة العليا للبت في الحكم، فأحكام كهذه لا يطلقها رجل مثله، إنها تحتاج سيدة أشبه بخنجر منها ببشر ، كالسيدة سهام :
_ لقد سألنا عنك، ولم يصلنا من أخبارك ما يمنع اقترانك بحبيبتي يمامة.
لم أنبس ببنت شفة، لكنّ علائم السرور التي ارتسمت على ملامحي كانت رداً كافياً.
ثم شرعت سهام في سرد التفاصيل.
اتضح في النهاية أني سأدخل عش الزوجية بثيابي التي علي. فلا يحق لي أن أضع ملعقة في بيت سليلة الثورة. لا أدري لماذا، ربما ليكون طردي سهلاً حين يلزم الأمر! لم يطلبوا مني حتى خاتم خطوبة . السيدة الوالدة قالت إن "نيشان" ابنتها ينتظر هذا اليوم منذ سنين، وكل ما هو مطلوب مني هو أن أحمل مجوهرات العائلة ألبسها لابنتهم أمام أنظار الناس. مجرد دوبلير. فلم تكن عائلة عبد الرحمن تنتظر مني ذهباً ، ولا نقوداً ، ولا أثاثاً مستعملاً، أو ثلاجة اشتريها بالتجزئة ؛ لأسدد ثمنها من راتبي شهراً بعد شهر، كنت بالنسبة إليهم مجرد اكسسوار يُضاف إلى صورة العائلة .
وفي الخميس الأول من شهر تموز ١٩٩٢ تم عقد القران والزفاف في أحد صالات فندق نينوى أوبري.
كان هناك استنفار أمني مشدد على باب الفندق. بسبب حضور كبار قيادات الحزب الحاكم وأعضائه. وقد زخرت الموائد بما لذ وطاب. كانت القاعة تلمع و تلمع لكثرة ما تزينت به النساء من ذهب

ومجوهرات .ثم جاءت الساعة التي كان علي أن أُلبس عروستي "نيشانها" .

وهنا تقدمت حماتي تتبعها سيدة تحمل ثلاثة صناديق مغلفة بمخمل خمري... ناولتني حماتي الصندوق الأول، وحين فتحته وجدت فيه طقماً من الألماس يتألف من قلادة وخاتم وسوار وقرطين. ألبست عروسي الطقم الماسي بمساعدة أمها، ثم تقدمت السيدة التي كانت تمشي خلف سهام وفتحت هي الأخرى صندوقها، وأخرجت منه سلسلة ذهبية يتدلى منها مجسم ذهبي للمصحف بحجم كف اليد فأخذته ووضعته حول رقبة عروسي، وهكذا توالت النسوة على مكان جلوسنا أنا ويمامة ... وكلما وصلت إحداهن فتحت صندوقها وقلدت ما فيه للعروس وحين امتلأت أصابعها بالخواتم، وأُثقل جيدها بكثرة القلائد صارت السيدة منهن تفتح صندوق كنزها لتريه لنا أولاً ثم تدور به نصف دورة ليتسنى للحضور رؤية محتوياته ثم تضعه على طاولة وضعت إلى جوارنا، وهكذا حصلت يمامة على ما لا يقل عن كيلو غرام من الذهب الخالص ليلة عرسنا، وقتها فهمت لماذا لم تهتم أمها بأمر المهر أو "النيشان" الذي كان من المفترض أن أقدمه لابنتها.

على الرغم من أنني عشت حياتي مشرداً، وكان عرسي هو أول عرس أحضره في حياتي، إلا أن أجواء الفرحة كانت غائبة عنه تماماً، أظن أن الأزواج الذين حصلوا على شراشف وأكواب قهوة وأقداح زجاجية كانوا أوفر سعادة منا.

بعد انتهاء الحفل، قامت الست سهام ومجموعة من رفيقاتها باصطحابنا إلى غرفتنا الكائنة في الفندق ذاته حيث أقيم الحفل، كانت

الهلاهل تصدح و "الجكليت" يتناثر . مر كل شيء بسلام فقد كان دوري في المسرحية يتلخص في أن أكون صهر الرفيقة سهام وذراعها الأيمن وأمين سرها، أما الرفيق سالم فلا أحد يرقص على مزماره، ومن واجب من مثلي أن يكتفي بفخامة اللقب، وأنا عددت هذا القران جواز سفري الذي سأعبر به إلى دنيا جديدة

يمامة

ولدت في مكان ما خارج أسوار الحي العتيق في بيت كبير فيه جد ، وجدة وعم ، وعمة ، وأطفال يلعبون ، ويتقافزون كان البيت جنة صغيرة ؛ ولكن ككل جنان الدنيا كانت جنتي ناقصة . كان ينقصها أم رؤوم وأب يحمل المعنى الحقيقي للأبوة .

كانت أمي متسلطة، تشعر أنها أعلى شأناً من عائلة والدي، و تذكّرهم دائماً أن أبي هو الذي أخرجهم من قمقم الفقر والعوز الذي علقوا فيه لسنوات طويلة جيلًا بعد جيل.

الناس في بيت جدي كانوا يشكلون مجتمعاً مقسماً إلى طبقتين، طبقة العبيد متمثلة بكل أفراد العائلة، سواي أنا ووالديَّ ؛إذ كنا نمثل طبقة السادة...

لم تسرّح أمي شعري يوماً، ولم تغسلني أو تغسل ثيابي كان ذلك عمل جدتي وعمتي، وإن صدر منهما أي تقصير ؛ فالتوبيخ من قبل أمي سيكون بانتظارهما دونما أي اعتبار للسن أو المكانة.

كبرت وأنا أسمع أمي تقول :

(إن البيت بكل ما فيه من أثاث وثياب ولُعب وطعام هو لي وملكي أنا وحدي، أما قاطنوه فقد كانوا هناك لخدمتي.)

كبرت وانا أشتاق إلى عناق دافئ من أمي وأحلم بالمساء الذي سأركض فيه إلى أبي لأعانقه عند عودته من العمل فيحملني بين ذراعيه ويدور بي ثم يخرج من جيبه قطعة حلوة كان قد اشتراها لي في طريقه، لا شيء من ذلك حدث يوماً؛ لأن عاطفة الأمومة لدى أمي كانت تعني تقوية النفوذ ، وفرض السيطرة على كل من حولك ، واستعبادهم إلى الأبد، أما العناق والقبل فلا مكان لهم في مفكرة الحب الخاصة بها، أما أبي فلا أظنه يحب شيئاً غير الوطن والتاريخ. كان يعيش معنا بجسده وحسب، أما روحه فلها أن تكون في مكان من اثنين: المكتبة أو مقر الحزب، كل شيء بالنسبة إليه على ما يرام مادامت المكتبة عامرة بأخبار سنحاريب و نبوخذ نصر وأعضاء قيادة الحزب راضين عن أدائه.

الوحيدة التي كانت تغمرني بالحب هي جدتي لأبي، والتي كنت للأسف أقابلها بالصد والجفاء، فكنت أرفض أن تعانقني أو تضمني إليها، وأتذمر من كل ما تعده لي من كعك ومعجنات، حتى بعدت الشُقْة بيننا ونسيت وجودها... ثم جاء اليوم الذي ذكرني بها خبر رحيلها .

كانت طفولتي الأولى جميلة على الرغم من طباعي النزقة التي أفسدتها سطوة أمي، وغياب أبي عن سلطة القرار . كانت حافلة بذكريات ذلك الزمان العابق بكل ما هو جميل وحقيقي. فحينما كنا صغاراً كانت البهجة متاحةً لكل الأطفال ، كان من السهل على كل

طفل أن يمرح غنياً كان أم فقيراً . المرح للجميع ...فرسم مستطيل كبير مقسم إلى ثماني مربعات يحمل كل منها رقماً على أرضية اسمنتية لا يكلف أكثر من كتلة جص ضالة سقطت من جدار متهالك . وتظل لعبتنا مطبوعة على أرضية الطريق نتقافز بين مربعاتها أسابيع، ونحن نمرح، إذا لم تتطوع جارتنا السيدة نظيفة بغسل الطريق . وفي أيام أخرى، كنت أتبرع بشراء مترين من (الشريط المطاطي) فنربط طرفيه ليكون على شكل دائرة مغلقة ونقفز الواحدة تلو الأخرى، ونعبر من مرحلة إلى مرحلة أخرى إلي ما لا نهاية له من المرح.

.وفي أصعب الحالات ، وحين نعجز عن الحصول على كتلة جص سقطت من جدار ، ونسأم من القفز على شريط المطاط كنا نكتفي بلعبة الحارة ليكون عمود الكهرباء القابع في نهاية الطريق محطة الاستراحة، أو ما نسميه بالديرة . فنمضي نهاراتنا في ملاحقة بعضنا بعضاً ، وما إن تمس يدي كتف صديقتي حتى نصرخ بصوت واحد (موت لفلانة) بمعنى أنه جاء دورها لتقوم بملاحقتنا .

و مساء كل أربعاء نتوجه إلى أقرب مكتبة لشراء العدد الجديد من مجلتي التي تكون ملكية عامة لكل فتيات الحي . ومثلها القصص والكتب التي اقتنيناها في طفولتنا. ألعاب بسيطة . تحتاج فقط إلى روح ذلك الطفل المملوء بالحيوية.

مرت طفولتي بسرعة وفي سنتي الخامسة قرر والداي الاستقلال في بيت جديد على الضفة ذاتها من النهر في مدينة الموصل. الغريب أن أمي وأبي انتقلا إلى البيت الجديد وتركاني مع جدتي وعمتي، الأمر بالنسبة إليّ كان سيّان لأنني لم أنشأ قريبة من أمي ولم تغمرني بحبها

وحنانها يوماً، ففي كل ليلة كنت أنام في حضن عمتي الطيبة التي كانت تتكفل بكل الأعمال الخدمية الخاصة بي، من غسل ثيابي وتلميع أحذيتي وتمشيط شعري، وإعداد طعامي ولم ترَ مني يوماً إلا المزاج السيئ والطباع الحادة والنفور والنزق.

وأذكر إلى اليوم أنني في أحد الأيام قررت أنه لا طعام لمن لا أمنحه الأذن بنفسي . معللة قراري ذاك بأن البيت كله بما فيه ملكي، وكذلك الطعام كما تقول ماما ، يومها سمحت لعمي فقط بتناول الغداء ومنعته عن كل من جدتي وعمتي كانت أمي حاضرة في ذلك الموقف، وما زالت ذاكرتي تحفظ كيف ضحكت ملء شدقيها حين وقفت على الكرسي وتلوت على الحضور قراري بحرمان كل من نانا والعمة ابتسام من الغداء، كانت سعيدة جداً بما كنت عليه، وتضحك من أعماق قلبها ، وكأنها تنصت إلى شيطانها يهمس في أذنيها :

_ نِعمَ التربية.

بعد عام من استقلال والدي في البيت الجديد صار لزاماً عليّ أن أرتاد المدرسة، وهنا حرصت أمي على أن أكون منها لا أدري لماذا ؟ المهم هجرت بيت جدي وذهبت لأعيش في بيتنا الجديد مع أمي وأبي، كان بيتنا يجسد المعنى الحقيقي للنشاز، وتردي الذوق، فحين عبّأت الدنيا جيوب أبي بالمال وهو ابن "الدرابين"، الضيقة والناشئ في ظلال الجدران الآيلة إلى السقوط كان عصياً عليه أن يهجر مرتع طفولته وحديقة ذكرياته ؛ فاشترى بيتاً قديماً على أطراف المدينة العتيقة، هناك حيث كان برجوازيو الأمس البعيد يقطنون، يبدو أن صورة المدينة في مخيلة أبي كانت غير خاضعة للتحديث الزمني ، وبعد امتلاكه البيت

المشيد في أربعينيات القرن العشرين، عمد إلى ترميمه على الطراز الحديث المتبع حينها فأصبح منظر البيت يرسو على تخوم الحي العتيق أشبه بزرافة على رأس قطيع من الحُمُر الوحشية.

ارتدتُ المدرسة الأقرب إلى البيت وفق حسابات المسافة. لم تكن أمي متطلبة في اختيار مدرستي. مدرسة والسلام. سعادتي كانت كبيرة بالتعرف إلى العالم خارج جدران بيتنا وبيت جدتي، تنغّصها بين الحين والآخر لحظات افتقد فيها إلى نفوذي وسلطتي على عالمي الصغير فكانت تمر أيام أتمنى فيها فقط أن يرن جرس الانصراف لأعود إلى عالم أجلس وحيدة على عرشه.

في الصف الأول التقيت بصبي ساخر له ضعف طول قامتي، شعره طويل وأجعد، وهذا منحه مظهر الفتى الذكي ، كان أيوب ذكياً فعلاً وكان ترتيبه الأول في الصف. كرهت أمي كلاً من صديقي وأمه، وكل ما يتعلق بهما. في صغري كنت أعجز عن فهم أمي فقد كانت تكره المتعلمين والجهال، الأغنياء والفقراء، البسطاء والمتعجرفين، ولكني حين كبرت علمت أنها تحب العبيد فقط. أولئك الذين رضوا بالخضوع لجبروتها.

في الصف الثاني منعتني أمي من التحدث إلى أيوب فنفذت رغبتها. كان ذلك سيمر مرور الكرام، لولا ظهور تلك المسماة مريم، التي استحوذت على اهتمام الصبي فصارت تلازمه كظله. ولأنني أحب أشيائي حتى تلك التي هجرتها؛ كرهت مريم. تلك الفتاة السمراء بثيابها الرثة وحذائها المثقوب كيف استطاعت أن تقترب مما كان يوماً ملك لي ، أيوب صديقي أنا.

مرت الأيام وانتقلت عائلة أيوب إلى ضفة المدينة المقابلة لدجلة، وأكملت ومريم المدرسة الابتدائية والسنين الأولى من المرحلة الثانوية في الصف ذاته، ولم أتقبل وجودها يوماً، ظللت أكرهها كما أكره مرأى الدم على رغيفي، وفجأة سطع نجم مريم صديق آغا في سماء مجالس المدينة، فكثر الحديث عنها، وعن قصتها وكيف ورثت أملاك صديق آغا كونها آخر من تبقى في سلالة الأسرة. كيف تسلقت هذه المتسولة المعدمة السلم الاجتماعي هكذا بين عشية وضحاها لتصبح وريثة غنية وطبيبة.

وتوالت أخبار سليلة صديق آغا حتى سمعت من إحدى صديقاتي أنّ خطبتها قد تمت على شاب مغمور ينحدر من عائلة عريقة يدعى أيوب . ألا يكفيها المجد والمال، وشهادة الطب. ألا تشبع هذه السوداء البغيضة بعد كل ما حصلت عليه. عادت لتأخذ أيوب وتستأثر به لنفسها.

وفي أواخر العام ١٩٩١ ظهر مازن أمامي فجأة... شاب يكبرني ببضع سنوات يدور حولي وكلما رفعت ناظري نحوه وجدته يحدق فيّ.

كانت أمي ترفض كل الخاطبين الذين تقدموا لخطبتي من الأغنياء ، وذوي الدخل المتوسط ، وذوي المناصب العليا ، و حاملي الشهادات ، ومحدودي التعليم . لا أدري ما الذي كانت تريده بالضبط ؟

ربما كانت تريد لي زوجاً تفصله على ذوقها ومقاسها .

وحين أخبرتها أن ثمة شاباً يطاردني ويظهر أينما كنت في الجامعة والشارع وفي كل مكان، أجرت بعض الاتصالات مع معارفنا في أمن الجامعة. أخبرتني بعد ذلك أن المجهول الذي يطاردني شاب جيد

وعريس لا يمكن تفويته وحثتني على تشجيعه على الاقتراب. وكعادتي (وعلى الرغم من تمردي على العالم بأسره كنت بين يدي أمي مجرد دمية تحركها كما تريد بخيوط خفية) وافقتها من دون تفكير وكأنني تحت تأثير التنويم المغناطيسي .

وصرت بعدها ابتسم كلما وقعت عيناي على الشاب البصري الذي أخبرتني أمي أن اسمه مازن. وفي غضون أيام تجرأ على طلب الأذن في الانضمام إلى طاولة أجلس إليها أنا وصديقتي في مركز الجامعة انصرفت صديقتي على الفور، وجلس مازن يجاذبني أطراف الحديث، وهكذا توالت اللقاءات، وأمي تدفع بي نحوه بكل ما أوتيت من سلطان عليّ . كانت تقول إنه الأنسب. لا أدري كيف، غير أنني كنت متحمسة للحصول على لقب سيدة، وربما كنت أتوق إلى شيء من الحب قد يمنحه لي مازن، الحب الذي تكاد حياتي تخلو منه. وبما أنني اعتدت الأمر والنهي فما إن وصلني خبر خطبة مريم، حتى طلبت إلى مازن أن يتقدم لطلب يدي من بابا.

كلفت أمي رجلاً من رجال أبي الذهاب خصيصاً إلى البصرة وتقضى أخبار عائلة مازن، وحين عاد المبعوث سلمها باليد مغلفاً ورقياً مقفلاً تصفحت أمي محتوياته، ثم خبأته بعيداً في خزانة فولاذية تستريح داخل أحد الجدران في غرفة نومها .

وافق والداي وتمت خطبتي وزواجي تزوجت قبل مريم بأسبوع. عشت بعدها سعادة نسبية، فرحتي بثوب الزفاف، الهدايا، و وجود رجل في حياتي.

وبعدها بأشهر قليلة دخلت في حلقة الضياع من جديد، فبعد مرور أسابيع عدة على زواجي، سألتني أمي إن كان هناك أي تأخير في موعد حيضي، فأجبتها بالنفي وبعد مرور شهر آخر أعادت السؤال على ؛ فكررت النفي، وهكذا قررت السيدة سالم عبد الرحمن عرضي على طبيبة العائلة.

لا أدري لماذا وكيف كنت على هذه الدرجة من السلبية أمام أمي ؟ كيف تركتها تجرني وراءها كأنها تمسك طرف سلسلة تطوّق عنقي! تبعتها كأنني تحت تأثير التنويم المغناطيسي. ما زلت أذكر تفاصيل زيارتي الأولى للطبيبة؛ أذكر فحوصات دم وصوراً شعاعية وفحصاً بالأمواج فوق الصوتية. كل هذا حدث بعد مضي ثماني أسابيع على حفل زفافي. خلصت الطبيبة أنني لا أشكو شيئاً. فتنفست الصعداء لكنني لم أكن قد أكملت زفيري حين قالت أمي ربما الخلل من زوجها. لا أدري ما الذي لجمني حينها عن أي احتجاج

_ أي خلل! فأنا لم أكد أعتاد على نطق اسمه، و ربما بصعوبة حفظت ملامح وجهه، فقد تزوجنا منذ أقل من شهرين.

لكن عبارتي لم تخرج من حلقي كالكثير من عبارات السخط التي كنت أقولها في نفسي ، ولا أجرؤ على أن أحرك بها لساني.

وفي المساء اتصلت أمي تدعونا إلى تناول العشاء في بيت أبي الذي يبعد بضع خطوات عن البيت الذي أعيش فيه مع زوجي.

وبعد العشاء قالت أمي لمازن بلهجة آمرة:

_ يمامة ستمكث هنا لمدة ثلاثة أيام. وبعدها تذهب أنت لإجراء فحص الخصوبة.

لا مجال لإضاعة الوقت في مملكة تحكمها أمي.
امتقع وجه مازن كمن طرق جمجمته بحجر. لكنه لزم الصمت. مضت الأيام الثلاثة، وفي مساء اليوم الرابع جاء مازن يحمل مغلفاً ورقياً وسلمه بيد أمي التي قالت إنها ستعرضه على طبيبتي . ثم أمرت بإطلاق سراحي لأعود الى بيتي وعريسي .
حسبت وقتها أنني خرجت من دائرة حصل أم لا؟ ولكنني كنت واهمة فتلك لم تكن سوى البداية. توالت الشهور ولا جديد. وأمي تنقر رأسي باقتراحاتها ونصائحها ، ومازن غير مكترث وكأن أمر إنجاب طفل يقع خارج مخططاته...
كنت حتى ذلك اليوم من شهر كانون الثاني العام ١٩٩٣ لا أزال احتفظ بشيء من بقايا أحلام وردية ومشاعر جميلة . حتى تعثرت بها في باب أحد المشافي ؛ إذ ذهبت لإجراء الفحص الكفيل بتشخيص عدائية الرحم. كانت مريم حينها طالبة طب في السنة الأخيرة. تمشي مع فتاتين في مثل طولها إحداهن تفوق مريم سمرة والثالثة ببشرة بلون البلور... عبثاً كانت مريم تحاول ضم المعطف الأبيض ليخفي بطنها المتكور، ثارت في قلبي براكين الغيظ كيف استطاعت هذه المعدمة أن تحمل بهذه السرعة! تخيلت نفسي حينها أحمل سكيناً أبقر بها بطنها وأتخلص منها ومن جنينها .
صار همي الوحيد هو أن أحمل، حتى أنني صرت أكثر إقبالاً من أمي على زيارة الأطباء ، وإجراء المزيد من الفحوصات المخبرية، ولكن لا جديد... لا شيء خارج عما هو طبيعي، ولكن لا وجود لأي أثر لطفل.

مازن
صيّاح من جديد

بعد انتهاء شهر العسل وفي أحد الأمسيات التي أمضتها يمامة في بيت إحدى الصديقات لحضور حنة أو خطوبة ، لا أدري .أرسلت السيدة سهام في طلبي. لبيّت على الفور، وحين وصلت لم أجدها في الصالة ؛ فأخبرني أحد الخدم أنها تنتظرني في مكتبة الدكتور،

ذهبت إلى هناك فوراً، كان المكان مهيباً، الجدران مغطاة بالكامل برفوف تملؤها الكتب والمجلدات . وطاولة كبيرة في الركن القصي من الغرفة وعليها حاسوب شخصي ودروع و جوائز رمزية .

جلست أمام السيدة التي كانت تستريح على كرسي كبير يكاد يبتلعها لضخامة حجمه وضآلتها.

_ شوف صيّاح . قالت سهام

تجمد الدم في عروقي وغاص قلبي عميقاً في صدري ثم عاد إلى مكانه، يخفق بعنف حتى أنني خلته سينفجر. طال سكوتي، فلم أجد جواباً ثم لملمت نفسي :

_ من صيّاح؟

لم تجب بل دفعت نحوي مظروفاً ورقياً، فضضته فوجدته يحتوي على صورة بالأبيض

والأسود يظهر فيها فتىً حافي القدمين مغبر الوجه مشعث الشعر بأسمالٍ رثة لا تصلح إلّا لمتسول تحمل يمينه صينية شاي تحوي ثلاثة أكواب فارغة، وإلى يساره يقف رجل نحيل الجسد بنظارتين داكنتين. تمعنت في الصورة... ‘إنه أنا صيّاح قبل ثورة الكاز التي

فجرتها يوماً ضد القمل في رأسي ، والرجل إلى جانبي هو عصمت، أبو عبد.

رفعت نظري إلى السيدة اصطنع عدم الفهم. فأشارت إلى أن هناك المزيد، شهادات خطية من العم عصمت والعم جلّاب يشهدون بأنهم يعرفونني أنا صيّاح... ويسرد كل منهم جانباً من القصة التي يعرفها... قصة تحولي من مازن إلى صياح... حمدت الطبيعة أن أحداً منهم لم يشر إلى مصير " البلدامة" ، وكيف تسببت في موتها واستوليت على كنزها.

فرغت من القراءة وأعدت الأوراق إلى المغلف. وهممت بالنهوض، كنت في هذه الدقائق القليلة قد حسمت أمري لأغادر المدينة برمتها، وأبدأ من جديد في مكان آخر.

_ إلى أين؟ استوقفتني حماتي .

_ نظرت إليها دون أن أنبس ببنت شفة، تسلحت بالصمت في انتظار أن تنطق بالحكم.

_ اجلس مازن، أنا لست هنا لأحاكمك... أنا فقط أردت لك أن تعلم أنك لم تخدعني يوماً، ولتعلم أن مصيرك مرهون بإشارة من يدي . وأن امرأة مثلي لن يخدعها ولد مثلك.

_ وما المطلوب مني؟

_ أن تكون ساعدي ومساعدي .هل ترى هذا البيت الفخم والأثاث الفاخر والسيارات الفارهة ؟

كلها ليست لي. أنا في الحقيقة لا أملك شيئاً، ربما أملك مصاغي. ولكنني قد أفقده في جزء من الثانية إذا أشارت القيادة بذلك ، وقد سبق وحدث هذا منذ سنوات. صيّاح أنا كنت أبحث عن شخص مثلك ؛

لأبني معه مملكتي . وها أنا عثرت عليك. أريد الحصول على ثروة تخصني، وليس لسالم وثورته علاقة بها. لكن إياك أن تخرج عن دائرة طاعتي... إياك !

وبعد تلاوة مستفيضة لبنود صك عبوديتي الجديدة،

قالت :

_ أريد منك أن تقلب السوق رأساً على عقب وتأتيني ببحث وافٍ عن كل الأشكال الممكنة للتجارة المربحة أريد مشروعاً يدر أرباحاً خيالية، وتذكّر أنك أنت ستدير مشروعي وتستخدم نفوذي لإنجاحه.

أطعتها، ثم خرجت وأنا أتساءل:

_ ماذا سنبيع؟

لا شيء غير الطعام في ظل الحصار الاقتصادي، الجميع كان مهووساً بقوت يومه، الفقير كان مشغولاً برغيف الخبز وحفنة السمن، والغني كان مشغولاً بقالب الحلوى، وكله طعام وما علينا إلا أن نبيع ونشتري كل ما يؤكل، ولكن السيدة كانت تريد أرباحاً خيالية وهنا كان علي أن أتعمق في بحثي. عدت إلى ارتياد المقاهي، كما فعلت في مستهل إقامتي في المدينة. ولكنني هذه المرة كنت أندس بين التجار والمُلّاك والموسرين، وجمعت معلومات كثيرة استنتجت من خلالها أن طعام الأغنياء لا يدر أرباحاً كبيرة؛ لأن ثمنه مرتفع من المصدر إلى تكلفة الجمارك ، وأجور النقل ، وتكلفة إغلاق الأفواه التي ستنفتح علينا

من كل جهة. الحل هو طعام الفقراء السمن ، السكر ، الشاي ، الرز، الدقيق و حليب الأطفال.

أعددت خطة كاملة، وحددت المصادر التي سنستورد منها خارج البلاد، ولكنني كنت في حاجة إلى واجهة لعملي. إلى شخص قبيح يتعامل مع رواد السوق والتجار بالمرونة تارة وبالصلافة تارة أخرى والوقاحة حين يلزم.

لم يطل بحثي فذات ليلة كنت على موعد مع أحد التجار، وكان اللقاء سيتم في بار منعزل في زاوية معتمة على الجانب الجنوبي لغابات الموصل ، وهناك وجدت ضالَّتي، إنه شاب في مقتبل العشرينيات، قوي كالبغل وممتلئ كالثور ، ذكي للغاية ، لا يستخدم ذكاءه إلا لأذية ، باسل الأعور كما كان عمال البار يسمونه ، كان ليلتها يعب كؤوس الخمر كأنها ليلته الأخيرة ، احتفظ حتى نهاية السهرة بمستوى معقول من الوعي على الرغم مما تجرعه من خمر على مدار ساعات الليل .

قبل أن أنصرف أعطيته رقم هاتف مكتبي وطلبت إليه أن يتصل في أقرب وقت ، وفي غضون أيام كنا جالسين في مكتبي نتفق على العمل سوياً في تجارة الأغذية بكل أنواعها .كانت تلك النواة التي بدأت بها ثروتي وسطع بعدها نجم باسل في سماء الثراء ليس على مستوى المدينة فحسب بل على مستوى البلاد بأسرها.

كنا نستورد حليب الأطفال الذي لم يتبق على انتهاء صلاحيته للاستهلاك غير أيام قليلة وبعد أن تدخل الشاحنات إلى البلاد تتوجه مباشرة إلى ورش تمحو تاريخ الانتهاء، ونستبدل به آخر يحين بعد عام وهكذا يتضاعف سعر الشحنة أضعافاً مضاعفة، وكذلك السمن

وصلصة الطماطم والأرز والشاي وبعد فترة فطن باسل إلى تجارة العقارات. أراض شاسعة كانت السيدة سهام تتكفل بأمر تحصيل الموافقات ونتولى أنا وباسل ما تبقى من مهمة تقطيعها إلى قطع سكنية وبيعها بعد ذلك .

يمامة

جاءت الذكرى الأولى لزواجنا، أهداني يومها مازن أول هدية في حياتنا الزوجية/ قلادة تحمل اسمي .

كنت أتردد على الطبيبة صديقة والدتي التي كانت تتابع حالتي، فتارة أزورها في عيادتها الخاصة، وتارة أخرى في المستشفى.

ما زلت أجهل كيف يضع القدر مريم أمامي في كل مكان أذهب إليه، جمعتني بها صدفة جديدة، فقد رأيتها بعد أن فرغ بطنها. رأيتها تمشي إلى جوار حبيبها الذي لم يتغير فيه شيء منذ عرفته قبل عشرين عام، الشيء الذي تغير هو الصغيرة التي كان أيوب يحملها بين ذراعيه، كانت ابنتهما تشبهني أكثر مما تشبههما.

لماذا أعطى القدر هذه الصغيرة الجميلة ذات الشعر الأحمر والعينين الزرقاوين إلى هذين الزوجين ولم يعطها لي . أحببت الصغيرة ولكنني كرهتها في الوقت عينه، كرهت ضعفي وعجزي الذي كشفه لي وجودها في هذا العالم، لم يلحظ الزوجان وجودي فقد كانا في عجلة من أمرهما، حملا ثمرة الحب المقدس وركبا سيارتهما وانطلقا إلى عش الزوجية. كاد الغيظ يقتلني. أقلني السائق إلى البيت وهنالك ركلت كل

ما وقعت عليه عيناي ، وبعد ساعة من وصولي جاءت أمي ووجدت البيت في حالة فوضى وأجفاني متورمة من البكاء .

_ لا شيء. هكذا أجبتها حين سألتني عن سبب بكائي ، لا داعي لإخبارها فمنذ متى كانت تأبه لما أشعر به.

كانت تنتظر مازن، لتحدثه في شؤون العمل. ذاك العمل المريب الذي يتهامسان بشأنه لساعات طويلة كل يوم، إما وحدهما، وإما ينضم إليهما صديق مازن ذلك الرجل الضخم بعينه الزجاجية التي تلاحقني طيلة فترة وجوده، فأجيب أنا على نظراته المولَّهة بنظرات مثلها وابتسامات.

كان الأمر في البدء مجرد تسلية ورغبة في كسر الروتين، حتى دعاني ذات ليلة إلى زيارة متجر العطور الفاخرة الخاص به.

_ وصلتنا مجموعة عطور فاخرة تليق بسيدة مثلك.

_ وهل تبيع العطور؟ سألت في غنج.

_ نبيع كل شيء. أجاب وابتسامة شهوانية تطفح من عينيه.

ناولني بطاقة من الورق المقوى كُتِب عليها بحروف مذهبة:

باسل للعطور وعنوان المحل ورقم الهاتف وقال :

_ اتصلي بي قبل أن تشرفينا .

وبعد أسبوع اتصلت بالرقم المثبت على البطاقة فجاءني صوت باسل، أخبرته أنني سأكون هناك خلال دقائق ووصلت فعلاً قبيل المغيب، بقيت أجرب أنواعاً مختلفة من العطور، حتى غابت الشمس وسادت العتمة دروب السوق، اخترت قارورتي عطر، الأولى: نوع ج _ كازانوفا، والثانية: نوع ريجينسي .

رفض باسل أن أدفع فلساً واحداً مقابل العطرين، وخرج إلى السائق وطلب منه الانصراف، ليوصلني بنفسه...

وهكذا توطدت علاقتي بباسل يوماً بعد يوم حتى صرت أمضي الليالي التي يغيب فيها مازن عن البيت برفقته في الشقة الكائنة فوق متجر العطور ، أو في بيت المزرعة الخاصة به .

مرت سنة أخرى وجاء عيد زواجي من جديد وهذه المرة أهداني مازن خاتم زواج تزينه ماسة كبيرة وقال لي بينما يطبع على خدي قبلة باردة كعادته :

_ أن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي...

لم يكن مازن يعلم أن الحب والاهتمام أشياء لا يمكن أن نغفر تأخرها.

مريم _ ١٩٩٨

مضى كل شيء بسلاسة، ومن دون تعقيدات تذكر منذ أن نجا أيوب من إصابة الحرب التي طالته في ربيع ١٩٩١ ... ارتبطنا بعدها بأشهر، وتزوجنا في صيف ١٩٩٢ وفي نهاية العام ١٩٩٣ ولدت فاطمة لتحمل اسم جدة أبيها الراحلة، على الرغم من قسوة الحصار، وشح الموارد، والراتب الذي لا يكفي لابتياع دزينتين من البيض. كنا ندرس ونربي ابنتنا بحب، تساعدنا في ذلك خالتي وجدان وعائلة زوجي. كل شيء كان جميلاً داخل بيتنا على الرغم من تفاقم قبح العالم في الخارج . الجوع، نقص المال والثمرات، أحلام لا تتحقق هذه هي أهم سمات عقد التسعينيات في العراق، نسي الأطفال طعم الحلوى

ونسيت النسوة رائحة الثياب الجديدة، وصار اللحم يزور قدور الفقراء مرة كل عام، هذا إن فعل .

بعد التخرج أمضينا أنا وزوجي عامين ندور من مشفى إلى مشفى ولا نلتقي إلا بالصدف .

انقضى العامان من دون أي مشكلة، انتقلنا بعدها للعمل في الأرياف ولحسن الحظ قضينا خدمة الأرياف في ضاحية قريبة، كنا نذهب معاً ونعود معاً . وفي أواخر العام ١٩٩٧ عدنا إلى العمل في مركز المدينة ؛ إذ تم قبول أيوب لدراسة الدكتوراه (البورد) تخصص في جراحة العظام والكسور ، أما أنا فقبلت في تخصص النسائية والتوليد.

كانت أيامي الأولى في التخصص عسيرة فالعمل ما بين ردهة الطوارئ وردهة المخاض وصالات الولادة وصالة العمليات يتطلب كادراً لا يقل عن ثماني طبيبات ، بينما كنت أنا وطبيبة حديثة التخرج نتكفل بالأمر برمته، الطبيبات المتخصصات كنّ قد منحنني الصلاحيات كافة لثقتهن في مقدرتي على تقويم الحالات واتخاذ القرار المناسب .

كانت صغيرتي فاطمة تكبر بسرعة متنقلةً ما بين حضن جدتها وذراعي جدها، تلعب وتقفز وكل شيء في البيت ينتظر إشارة منها ، وكأنها أميرة تأمر وتنهي والكل خاضع إلى سلطتها.

مضت ستة أشهر من دون حادثة تذكر ، وفي حزيران ١٩٩٨ عدت من مناوبتي أقود سيارتي وأنا لا أكاد أرى طريقي من شدة الإرهاق، فوجدت حشداً من الرجال يتجمع عند باب بيتنا، وسيارة نصف نقل

تقف على الرصيف المقابل، بينما يحاول رجلان إنزال تابوت من السيارة المركونة.

أيوب

إنه يوم ٢٦ أيار العام ١٩٩٨، كنت مِناوِباً في طوارئ الردهة الجراحية في مستشفى الجمهورية حين اندفع أمجد صديق طفولتي، يتبعه جمع من رجال السوق أعرفهم جيداً... بينما يدفع رجال الإسعاف رجلاً على محفة، اقترب أمجد مني والدموع تلمع في عينيه :

_ أيوب، العم حيدر وقع مغشياً عليه، ولا نعرف ماذا به.

ركضت نحو الجسد المسجى على النقالة، بينما يدفعها رجال الإسعاف، كان أبي ذلك الأسد الهمام ممددًا جسداً بلا روح ، فقد كل نبض للحياة، تفحصت نبض رسغه، ولا مجيب ثم وضعت سماعتي على صدره الحبيب الذي طالما ضمني في لحظات ضعفي، ولا شيء سوى خواء، وصمت يكاد يسلب روحي.

أعلن الطبيب المسؤول عن وفاته، هكذا سقط أبي، انهار ذاك الجبل الذي استندت إليه طوال عمري.

تكفل أمجد ورجال السوق وجيران المكتبة بإكمال الإجراءات، ثم حملنا الجثمان إلى البيت ومرة أخرى حملني أمجد ولكني لم أكن جريح حرب هذه المرة بل جريح الروح وكليم الفؤاد .

ذاع الخبر في أرجاء المدينة بسرعة لا يمكن تصورها، كنا نخطط أن نحمل الجثمان إلى المسجد مع صلاة العصر لأداء صلاة الجنازة،

ومن ثم التوجه إلى المدفن الخاص بنا الذي اشتراه والدي منذ سنوات قليلة.

وفجأة وصل عميد العائلة، كان هو الوحيد الذي على قيد الحياة من أعمام والدي وقد جاوز التسعين من عمره. دخل إلى مجلس العزاء وفور دخوله عانقني وأجهش بالبكاء

(ربما عليّ أن أذكركم أن عائلة جدي لأبي كانت قد أعلنت براءتها من جدي الذي أصرّ على الاقتران بجدتي، التي حسب اعتقادهم، لا تحمل في عروقها دماءً زرقاء، الأمر الذي أدى إلى حرمان جدي ومن بعده أبي وأنا من كل امتيازات لقب العائلة وممتلكاتها _ رواية شجرة الليمون العجوز) ثم جلس الرجل العجوز وافتتح الحديث :

_ حيدر لا بد أن يدفن إلى جوار أبيه في مدافن العائلة.

منعني الاحترام من أن أقول له :

_ ومتى عرفتم حيدر ؟

وكأن الكهل سمع أفكاري، فقال:

_ يا بني، مساعينا من أجل الصلح مع أبيك لم تنقطع خلال الخمسة عشر سنة الماضية. أرسلنا إليه كل الوساطات الممكنة ليقبل بالصلح ويأخذ نصيب أبيه من أملاك جده، ولكنه كان عنيداً كأبيه . كانت رسلنا إليه، كلها تعود بالرسالة ذاتها:

_ المال الذي لم تنعم به فاطمة الموسوي حرام علي كحرمتها.

_ أبوك يا بني أغلق كل السبل أمامنا . رحمه الله

_ لكن يا جدي نحن لدينا مدفن خاص بنا، ولا داعي لدفنه في مدفن العائلة.

_ نحن عائلة واحدة يا بني، ولا يعقل أن يعيش حيدر وحيداً ويموت وحيداً.

_ لا أدري، يا جدي، ربما علي استشارة أمي، خشية أن أخالف رغبة والدي رحمه الله ، فهي أدرى الناس به.

وبعد التشاور قررنا الانصياع إلى رغبة الجد، وفعلاً، عاد أبي إلى أحضان العائلة العريقة، ولكن عاد إليها جسداً بلا روح .

بعد رحيل أبي كنت أتنفس وأمارس حياتي المعتادة كما يبدو للآخرين، وإنما، في الحقيقة، إنّ جزءاً كبيراً من روحي قد تم انتزاعه، ولم يتبق لي سوى الجزء الكفيل بإدارة العجلة كيفما اتُفِق.

كانت مزامير غيابه تعزف في قلبي وعقلي من دون هوادة، فقد صار العالم موحشاً بعد خلوه من كلمة أبي! وصار كرسيه الفارغ يشعرني بالضياع. يقولون إنّ الحياة لا تتوقف برحيل أحد، و الحقيقة أنها تتوقف فعلاً ، لكننا نستمر في الظهور بمظهر الأحياء ؛ لأن الفقد يكْلِم الأرواح بينما تبدو الأجساد وكأنها على ما يرام .

كل شيء حولي كان يعيدني إلى ذكراه... الأصوات والوجوه والموجودات كلها تشير إلى غيابه. .

العودة إلى حضن العائلة

بعد رحيل أبي توالت زيارات عائلة رشيد بيك إلى بيتنا، فقد كانت النسوة يترددن إلى أمي وزينب في البيت، وكان الكهل علي رشيد بيك يمر بي بين الحين والحين في المشفى حيث أعمل .

وذات يوم صحبني بعد انتهاء مناوبتي إلى مقهى قديم في شارع فاروق، جلسنا في ركن قصي يحدثني عن ذكريات المكان في زمان غير الزمان وكانت عيناه تمتلئان بالدموع عندما يأتي على ذكر أخيه عبد الله... جدي الذي لم تبصره عيناي.

وذات مرة قال الجد:

_ لم نكن راضيين عن قرار أبي في إقصاء جدك عبد الله من العائلة ، لكن العناد صفة متوارثة في عائلتنا ، ولقد عايشت بنفسك عناد حيدر رحمه الله ...

قال الجد علي رشيد بيك. وما إن خرج اسم أبي من بين شفتيه حتى أجهشت بالبكاء، ربّت الجد على كتفي. وبعد أن هدأت ثورة شجني، قال :

_ بُني أيوب، حقك وحق أخيك يجب أن يعودا إليكما. يجب أن تتحرر روح جدك رشيد من ذنبكما، وذنب أبيكما.

_ أخشى ألا يرضي ذلك أبي .

_ بل يرضيه، أنتم في أمسّ الحاجة للمال... أخوك يحب أن يسافر خارج البلاد، ويخضع للعلاج في أحدث المراكز، أختك يجب أن تدرس في أرقى المدارس والجامعات شأنها شأن بنات

العـائلات الموسـرة ... أنـت وزوجتـك وطفلتـك وأطفالـك القـادمون بـإذن الله يجـب أن تعيشـوا فـي المسـتوى الـذي تسـتحقون، أيـوب يـا بنـيّ أرجـوك سـاعدني لكـي أزيـح هـذا الحمـل عـن كـاهلي لأرحـل عن هذه الدنيا مرتاح الضمير ، حفظك الله.

_ افعل ما تراه صواباً يا جدي .

وهكذا آلت إلينا ثلثا حصة جدي عبد الله من أملاك رشيد بيك والد جدي، بينما ذهب الثلث إلى عمتي وعائلتها حسب الشرع.

عمارة في شارع نينوى، مجموعة دكاكين في باب جديد، أراض زراعية في منطقة حاوي الكنيسة، وبيت صغير في أحد ضواحي العاصمة الأردنية . أصر الجد على أن يكون هذا البيت ملكية خاصة ليوسف ليكون مكان إقامته هناك إذ ارتأى الكهل أن تصحب أمي وزينب يوسف إلى عمّان ؛ لأن أحدث الخطط العلاجية للتوحد موجودة هناك حسب ما سمع من التجار و المثقفين، توسط بعدها بأشهر للحصول للعائلة على جوازات سفر لغرض الانتقال إلى بيت عمان... رُفض طلبي كوني طالباً في الهيئة العراقية للاختصاصات الطبية وكذلك مريم... أما كل من أمي وزينب ويوسف فارتحلوا إلى عمان لعلاج يوسف والاستقرار هناك حتى ألحق بهم بعد إكمال تخصصي.

كان الجد يوحي إليّ بين الحين والحين أن الرحيل أفضل من البقاء، وأن المستقبل في الخارج أفضل .

لم أستجب إلى تلميحاته. يبدو أنني ورثت بعضاً من عناد عائلة رشيد بيك .

يمامة _ ١٩٩٨

في عام زواجي الثالث، تكرر غياب مازن عن البيت وتكررت معه الليالي التي أمضيتها في شقة باسل .كنت أعيش حياة عاطفية جامحة، أنستني موضوع الحمل وانتظار الطفل.

وفي مطلع ديسمبر من العام ١٩٩٨ تأخر الحيض أسبوعين كاملين، وبدأت أشعر بنوبات غثيان وإقياء صباحي مع حالات من الدوار الذي كان يسبب لي إغماءات في بعض الأحايين . ظنت أمي أنه حمل كاذب، فلم تُعِرْ شكواي وتوعكي شيئاً من اهتمامها.

وفي ليلة السادس عشر من كانون الأول شنّ طيران التحالف الدولي غارات متفرقة على مواقع مختلفة في المدينة. كنت أرتجف خوفاً وحيدة تحت لحافي ، فمازن كان مسافراً، ولم أتمكن من الخروج لموافاة باسل في شقته بسبب القصف وأخيراً أصبح الصباح... كانت هناك قطرات دم على ثيابي. استبدت بي رغبة مجنونة للذهاب إلى المشفى، بدلت ثيابي وتبرجت كما يجب، وطلبت من السائق أن يقلني إلى المستشفى، أظن أنني كنت أختلق الأعذار والحجج لأذهب إلى المستشفى تحدوني إلى ذلك نزعة لا واعية لمعرفة ما يدور في جوفي. فلمَ هذا التأخير ولماذا يحدث في هذا الوقت بالذات بعد أن صرت زوجة وعشيقة في الوقت نفسه أيُعقل أن أكون حاملاً! وإن كنت كذلك فمن سيكون الأب، أخرستُ هواجسي حين قلت في نفسي المهم أنني الأم. دخلت ردهة الطوارئ وخلف طاولة صغيرة في ركن غرفة الفحص لمحتُ مريم تجلس والإرهاق بادٍ عليها . تحركت نحوها ،

وأخبرتها عن حالتي. فتناولت قصاصة تحمل شعار المستشفى وكتبت على ظهرها حروفاً غير مفهومة يبدو أنها اسم دواء، أخبرتني أنها إبرة اختبار تساعد على نزول الطمث إن كان الحمل كاذباً ولا تفعل شيئاً إن كان هناك حمل.

دسست الورقة في حقيبتي، وغادرت، وبعد الظهر أحضر لي السائق الدواء المكتوب على الورقة كما طلبت منه .

_ الصيدلانية تقول إنها ابرة اختبار يظهر مفعولها بعد أسبوع. هكذا قال السائق .

زرقتني الخادمة الإبرة وبعد ساعتين، ازدادت حدة النزف، وحين انتصف الليل احتدت أكثر حتى صارت الدماء تتدفق من جوفي كالسيل وآلام بطني تكاد تقطع أنفاسي ، هرع والداي إلى غرفتي بعد أن سمعا صراخي ليجداني ملقاة على أرضية غرفتي والدماء تلطخ ثيابي.

علت وجه أبي صفرة، أما أمي فقد هاجت وماجت وارتبكت، وكأنها على وشك أن تضل طريقها وهي لا تزال في بيتها.

حملوني إلى المستشفى، في موكب مهيب تقوده سيارة الإسعاف التي تحملني وأمي إلى جانبي، تتبعها سيارة تقل أبي، ثم سيارة رجال الحماية المدججين بالسلاح . وحين وصلت أخبرتهم أنني كنت أعاني من غثيان ودوار صباحي وأنني كنت في أسبوع حملي السابع لولا الإبرة التي كتبتها الدكتورة.

أرسل أبي أحد الحرس إلى مدبرة المنزل لتخرج الوصفة من حقيبة يدي التي لا تزال على طاولة الزينة في غرفتي، وحين وصلت الورقة تعرف

الجميع إلى توقيع الدكتورة مريم، لكن أحداً لم يتعرف على اسم الدواء المكتوب بخط سيء.

تم استدعاء مدير المشفى قُبيل الفجر، وبعد كل الرعب الذي تم بثه في نفوس العاملين في المشفى شهد الجميع بتقصير الدكتورة مريم، التي لا يحق لها أن تكتب علاج لأنها لا تزال طبيبة مقيمة تحت التدريب ولا يحق لها طلب علاج من خارج المستشفى بأوراق المستشفى إضافة إلى وصفها لعلاج أدى إلى الإجهاض، كانت هذه هي التهم الثلاث التي أُدينت بها مريم بشهادة جميع العاملين في المستشفى.

ثعلب الصحراء

أيوب

ما زالت تلك الليلة الكانونية الباردة عالقة في ذاكرتي وكأنها لن تنتهي يوماً، كانت مريم في المناوبة وأنا وفاطمة في البيت، إنها ليلة السابع عشر من كانون الثاني العام ١٩٩٨، الصحراء تثور علينا من جديد، لكنها هذه المرة لم ترسل لنا عاصفةً بل ثعلباً ... إنها عملية ثعلب الصحراء، عملية خاطفة على وصف مراسلي القنوات الإخبارية في المذياع، خاطفة بما يكفي لإرعاب الصغار وبث الهلع والارتياع في قلوب الشيوخ والنسوة، استهدف الطيران مؤسسة عسكرية غير بعيدة عن بيتنا فاهتزت أركان البيت. واستيقظت فاطمة، وراحت تبكي وتبحث عن أمها ... لم أستطع إسكاتها وطمأنتها إلا قبيل الفجر،

عندها عادت إلى النوم، وقبل الشروق اتصلت الخالة وجدان للاطمئنان علينا.

_ أنا بخير عزيزي أيوب، لا تُخرج البنت من سريرها في هذا البرد أنا سآتي إليكم.

أقفلتُ الخط، وفي الساعة السابعة والنصف كانت عند الباب.

غادرت البيت لاستلام مناوبتي، وفي تمام الساعة الثامنة كنت أدور على مرضى الطوارئ، إذ وجدت أن اثنين منهما يحتاجان إلى تدخل جراحي عاجل، كسرٌ مرحلٌ يحتاج إلى من يعيد طرفيه إلى وضعهما الطبيعي والثاني طلق ناري في الكتف، بعد نصف ساعة كنت أغسل يديا استعداداً للبدء في جراحة استكشافية لصاحب الطلق الناري ، وعندها دقت الصافرة، ثم دمدمة محركات ال F16 كان الهدف قريباً هذه المرة إذ لا يفصلنا عنه إلّا " دجلة" .

استهدفت الطائرات ذاك البيت المشيد على شكل قارب شراعي يغفو على الضفة الشرقية للنهر تعود ملكيته إلى أحد أقارب رأس النظام. دامت الغارة خمساً وأربعين دقيقة، كنت أعمل بطاقة عالية في ظاهر الأمر ، أما الحقيقة فكل شيء بداخلي كان يرتجف وصورة فاطمة وهي تبكي وترتعد من صوت دوي الصواريخ لا يفارق خيالي.

سيدة مهمة جداً

مريم

كانت مناوبة ليلة السابع عشر من كانون الأول العام ١٩٩٨ مناوبة ثقيلة محملة بالولادات المتعثرة وولادات التوائم والعمليات القيصرية، وحالات الإجهاض التي رافقت الهلع الذي سيطر على الناس من جراء الغارات الجوية. كنت أعمل بجد وصبر تحت هزيم القنابل ودوي الصواريخ تتقطع أنفاسي مع بدء الصافرة؛ ذاك الصفير المتقطع الذي يعلن عن بدء غارة جوية، ثم أتنفس الصعداء حين تطلق صفيرها المستمر لنصف دقيقة معلنةً ابتعاد الخطر .

انتهت المناوبة في تمام الثامنة، ولا أثر للزميلة التي ستتسلم المناوبة من بعدي، لأعود إلى بيتي و صغيرتي التي أمضت ليلتها بعيداً عني وسط عواء صافرات الإنذار وأصوات الصواريخ .

انتشرت في المستشفى شائعة مفادها أن سكان الجانب الشرقي من المدينة، لن يعبروا اليوم إلى جانبها الغربي مخافة أن تقصف الجسور فيعلقوا بعيداً عن بيوتهم، أيقنت حينها أنني سأمضي يومي وليلتي بين النساء المتألمات، لم يكن عقلي قد فرغ من استنتاجاته حين دوّت الصافرة معلنة اقتراب الطائرات، وبعد أقل من دقيقتين ارتطم الصاروخ الأول بالأرض فاهتزت أركان مبنى المستشفى، وسرت بين النساء الحوامل حالة من الذعر، وفي هذه الأثناء دلفت من الباب شابة شقراء ضئيلة الحجم بكامل زينتها و اقتربت من المنضدة التي أجلس خلفها وشرعت تصف لي أعراض مثالية لحمل مبكر، أخبرتها أنها تحتاج

إلى فحص لإثبات الحمل ؛ لكنها رفضت متعللة بأن المختبرات لن تفتح أبوابها في يوم كهذا فاستللت ورقة طلب علاج وكتبت عليها بخط متعب :

Progesterone ampoule lm injection

عقار البروجستيرون . أو اختبار الحمل

انتهت الغارة ومضت السيدة الشابة حسنة المظهر وعدت إلى النسوة المتألمات اللواتي يشغلن أسرّة الردهة حيث أعمل، أداويهن وأخفف من أوجاعهن. وقبل الزوال وصلت الطبيبة المناوبة التي ستحل محلي، كانت الغارات قد هدأت نسبياً ، فتمكن الناس من الخروج من بيوتهم آمنين.

ركبت سيارتي لا ألوي على شيء، سوى أن أصل إلى صغيرتي لأعانقها وأطمئن عليها.

لا شيء خارج عن المعتاد ، غارات بعيدة تروح وتغدو ، حتى الصغيرة اعتادت الوضع .

مكثت خالتي معي كما اعتادت أن تفعل حين يكون أيوب مناوباً. نامت فاطمة باكراً ، وعكفت على دروسي، فامتحان المرحلة الأولى من التخصص بات قريباً. وفي تمام الساعة الثالثة فجراً أجفلني رنين الهاتف، رفعت السماعة؛ فإذا به صوت الطبيبة المناوبة تزبد وترعد عبر سماعة الهاتف، لم أفهم شيئاً، لكنني استنتجت أن مصيبة قد حدثت، وأن شخصاً على قدر كبير من الأهمية كان طرفاً فيها. طلبت مني أن أحضر فرفضت:

_ كيف أخرج وحدي في ظرف كهذا. قلت

_ تصرفي، إنها مشكلتك.

ثم أقفلت الهاتف.

طلبت على الفور رقم المستشفى الجمهوري، وطلبت من عامل البدالة أن يوصلني بردهة الطوارئ.

_ صلني بالدكتور أيوب.

_ لقد غادر للتو. توجه إلى دار الأطباء.

عدت إلى عامل البدالة.

_ صلني بدار الأطباء لو سمحت.

_ حسناً.

_ ألو..... صوت متعب جاءني على الطرف الآخر من الخط.

_ من معي؟

_ ماذا هناك تكلمي مريم ؟

_ مشكلة في المستشفى ويطلبون حضوري فوراً.

_ إياك أن تخرجي من البيت سأذهب لأرى.

سيدة مهمة جداً

أيوب

كان الظلام حالكاً في طرقات المجمع الطبي بسبب التعتيم الموصى به من قبل فرق الدفاع المدني . المسافة قريبة للغاية، استغرق الأمر دقيقة ونصف لأصل إلى بوابة الطوارئ الخاصة بمستشفى البتول التعليمي للنسائية والتوليد، وجود أمني لم آلفه من قبل عند مدخل المستشفى ؛ سيارة عسكرية وسيارة مرسيدس بيضاء موديل ١٩٩٠ وأخرى اولدزموبيل وبيك أب وعساكر ومسلحون بزي مدني.

_ يبدو أن مصيبة كبيرة قد حدثت.

قلت في نفسي بينما تضيق أنفاسي وتزداد ضربات قلبي شدةً.

أخبرت موظف الاستعلامات أنني قادم للإجابة عن استشارة أرسلتها الطبيبة المناوبة، وهو أمر يحدث كثيراً . أدخلني على الفور.

كانت الفوضى تعم المكان وصوت جلبة ينبعث من غرفة الطبيب المناوب، تتبعت مصدر الصوت ودخلت، فوجدت مدير المستشفى، وسيدة شقراء خمسينية ضئيلة الحجم مدببة الملامح والطباع ... ورجلاً بديناً ضخم الجثة، وجهه شديد الحمرة، وشابة شاحبة تلتحف بمنامة شتوية أنيقة تتلوى متصنعة الألم نصف ممددة على سرير، وإلى جانبها رئيسة قسم النسائية في كلية الطب والمسؤولة عن طالبات البورد وعلى يمينها، زميلة تكبرني ربما بعشر سنوات أعرفها جيداً تعمل أخصائية توليد وأمراض نساء في المستشفى ذاته .

_ تفضل من حضرتك؟ سألني أحدهم

_ دكتور أيوب، هناك من استدعى زوجتي للحضور ، وهي لا تتمكن من مغادرة البيت في وقت كهذا.

قلت ما قلت بهدوء شديد كان سببه الإنهاك الشديد الذي كنت أعانيه. أكملت عباراتي، فانفجرت السيدة الخمسينية بوجهي رمتني بأقذع الألفاظ وأقذر الكلمات وأبشع التهم، وحين أردت أن أدافع عن نفسي أمامها بأدبي الذي نشأت عليه، انهال علي أفراد حمايتها بالضرب والصفع والركل حاولت في البدء أن أدرأ الضربات عن نفسي، لكنني سرعان ما استسلمت تاركاً عصابة السيدة VIP لتكمل مهمتها في إبراحي ضرباً.

اقتادوني بعدها إلى غرفة الحبس الكائنة في مركز شرطة تابع للمجمع الطبي التعليمي. لأكمل ليلتي بين السكارى والشواذ والقواد . دخلت غرفة الحجز التي تنبعث منها رائحة عجيبة، خمنت أنها مزيج من حموضة القيء ورائحة الخمر و البول. قضيت الساعات المتبقية من الليل واقفاً، إذ لم أستطع الجلوس بسبب قذارة المكان، وما إن طلع الصباح طلبت من مفوض المركز السماح لي بإجراء مكالمة، فوافق على الفور فقد كان يكن لي احتراماً كبيرا ؛ اتصلت بالجد علي رشيد بيك عم والدي و حكيت له الحكاية بالكامل ثم طلبت منه أن يرسل أحداً ليرافق مريم إلى المستشفى مخافة أن يعتدي عليها أفراد الحماية كما فعلوا معي.

اتصلت بعدها بالبيت، وطلبت من الخالة وجدان أن تأخذ فاطمة وتذهب إلى بيتها تحسباً لأي تصرف أرعن قد تقدم عليه عائلة السيدة المهمة جداً

حين بدأ الدوام صحبني أحد أفراد الشرطة إلى مستشفى البتول . كنت أمشي في طرقات مجمع المشافي ومعصماي مكبلان بالأصفاد يتقدمني شرطي، ونصف وجهي متورم وتعلوه زرقة داكنة ...

أدخلني الشرطي، وحين وصلنا إلى باب غرفة المدير كان الجد علي بيك ينتظرني مع اثنين من أبنائه اللذين يبلغان من العمر ضعف ما أبلغ من العمر، غضب الجد لمرآي على هذه الحال. وما إن دخلنا حتى وجدت السيدة المدببة وابنتها الشقراء وزوجها الشبيه بالخرتيت في غرفة المدير، كان جدي غاضباً فاستهل الحديث بالتوعد بالعقاب لكل من اعتدى عليّ بالضرب ، ثم ندد باقتيادي مقيداً بالأصفاد على مرأى من الناس وأنا ابن عائلة معروفة وطبيب كفوء... واختتم الخطاب قائلاً:

_ فوراً سأرحل إلى بغداد وسأطلب مقابلة الرئيس و لنرَ هل سيرضيه هذا؟ ضرب وسب وشتم وإهانة واحتجاز طبيب شاب في مركز شرطة من دون توجيه تهمة إليه، ثم اقتياده مقيداً بالأصفاد على مرأى من الناس ؟ أين نحن؟ في غابة؟

_ ابنكم غير مؤدب يا حجي. تكلّم معنا من دون احترام .

قالت السيدة الخمسينية.

_ انتبهي إلى ألفاظك سيدتي، ابننا ورث الأدب والاحترام أباً عن جد ، ثم إن اسمي ليس "حجي" أنا علي رشيد بيكَ، نلتقي عند سيادته، ليس لدي المزيد لأقوله .

وهنا تدخل مدير المستشفى لتهدئة السيدة التي علمت أن اسمها سهام، ربما أدرك المدير أن جدي يقول ويفعل .

وأخيراً تم الاتفاق على إطلاق سراحي، ورفض الجد دفع أي كفالة، إذ لم تُوجه أي تهمة اليّ ... أما مريم فقد تم الاتفاق على إغلاق محضر الشرطة، والاكتفاء بإيقافها عن العمل مؤقتاً ريثما تنظر لجنة تحقيقية في الأمر.

خرجت من المستشفى أمشي بين أبناء عمومتي مثقلاً بالذل، تسوطني أوجاع كرامتي، يشتغل فكري كآلة لا تتوقف في البحث عن مخرج من هذه الورطة، ومحاولة تذّكُر أين ومتى رأيت السيدة وابنتها؟

أيوب

حضرنا بعد أيام للمثول أمام اللجنة التحقيقية المعنية بالنظر في قضية تقصير مريم وتسببها في إجهاض الجنين المزعوم عالي الأهمية.

دخلنا أنا ومريم وصحبنا أحد أقارب أبي رجل في العقد السادس من عمره، انتدبه الجد عميد العائلة لمرافقتنا، كانت الجلسة منعقدة في قاعة المكتبة في الطابق الأول منعني شاب ضخم واقف عند الباب من الدخول. بينما سمح لمريم ولقريبي المحامي بالمرور إلى الداخل.

محاكمة غير عادلة ...مريم

دخلت المكتبة الشبيهة بقاعة امتحان، لكن خصومي لن يكونوا القلم والذاكرة والمعلومات ، بل سأكون وجهاً لوجه مع سلطة القمع والاستبداد، جلست إلى الطاولة التي يجتمع حولها سبعة أشخاص، طبيبة اختصاص أمراض نسائية توليد تعمل في سلك الصحة ونظيرة لها تعمل في سلك التعليم العالي والبحث العلمي، والطبيبة الاختصاصية التي حدثت المشكلة أثناء مناوبتها ومدير المستشفى وهو طبيب متخصص في الجراحة العامة، والسيدة الصغيرة المدعية وأمها ورجل آخر أعرفه جيداً ، كان حاضراً بصفتَه محامياً وزوج المدعية، عرّف عن نفسه على أنه المحامي مازن نافع عطية، إنه مازن المحامي الذي كان يتابع قضية ميراثي منذ بضعة سنوات.

طلبوا مني في البدء سرد ما حدث، فقصصت عليهم القصة كما أملتها عليّ ذاكرتي، فسألتني طبيبة التعليم العالي :

- مريم عزيزتي، ألا تعلمين أن العرف السائد هو أن VIP (شخص عالي الأهمية) يشرف على علاجه الطبيب المتخصص وليس الطبيب المقيم.

_ لا، لا أعلم. ثم كيف لي أن أعرف أنها شخصية مهمة هي لم تقدم نفسها لي. قُلت بحدة .

- لماذا لم ترسليها إلى شعبة الفحص بالأمواج فوق الصوتية، للتأكد من صحة الجنين.

_ كانت الشعبة مغلقة بسبب الغارات الجوية ، المستشفى كان فارغاً تقريباً ؛ بسبب قطع الجسور.

_ وما العلاج الذي طلبته لها؟

_ بروجستيرون أمبول .

_ ولماذا خطك بهذا السوء؟

_ لأنني كنت متعبة جداً، أمضيت أربعاً وعشرين ساعة أولّد نساءً وأجرف أرحاماً. وأفتح بطوناً لأخرج منها أطفالاً صغاراً ، وكل هذا تحت نير القصف.

قال مدير المستشفى :

- هذا لا يبرر تقصيرك ، فقد كنت تقومين بعملك .

_ لا، لم أكن أقوم بعملي، كنت أقوم بعملي وعمل أربع مقيمات من المفترض أن يعملن معي يداً بيدٍ ، وعمل الطبيبة المتخصصة التي كانت نائمة في بيتها ، بينما أنا أواجه المتاعب وحدي. قلت غاضبة .

_ كذب وافتراء، كنت معكم الوقت كله ، ثم نمت في سكن الطبيبات، كان عليك استدعائي .

نظرت إليها نظرة تشكيك، لكن لساني لم يطاوعني على تكذيب سيدة، قد تكون في عمر أمي لو كانت أمي حية.

قال المحامي قريب أيوب :

- أريد معاينة الوصفة.

ناوله مازن الوصفة، فتفحصها بعناية وقال:

الاسم يمامة سالم. هل أنت يمامة سالم؟

_ نعم.

_ لماذا أضفت اسمك إلى الوصفة؟

_ لا لم أفعل. أنكرت بشكل هستيري.

_ لون الحبر غير مطابق، يا ابنتي، إنها أقدم حيلة لتزييف الأدلة في العصر الحديث.

ثم وجه كلامه إلى محامي المدعية الأستاذ مازن :

_ أستاذ، أنت أدرى الناس نحن أمام قضية أشباح ؛ السيدة ليس لديها إثبات أنها كانت حبلى، وتحمل وصفة بتوقيع موكلتي وقد أضافت بنفسها الاسم إليها، ولا أحد من العاملين في المستشفى شهد عملية الإجهاض. مقومات الشكوى كلها مقوضة وغير قائمة الأساس ثم إن موكلتي تعمل مقيمة، وهي هنا لتتعلم وتتخصص، والقانون لا يحملها المسؤولية، بل يحمل الطبيبة المتخصصة.

وهنا انفجرت والدة المدعية بألفاظ نابية و بنعوت بذيئة...

_ سيدتي، كوني حذرة، فقد أرفع في حقك دعوة سب وشتم.

قال المحامي قريب أيوب بهدوء .

حاولت السيدة أن ترد بأسلوبها المعهود لكن صهرها نجح في إخماد بركان ثورتها، وانفض المجلس وانصرفت مع المحامي نحو الباب، وطرق مسمعي، قول السيدة المدببة:

_ حقنا نأخذه بأيدينا.

_ هذا تهديد صريح سيدتي. قال محاميي بكل هدوء.

فالتزمت المدببة الصمت تماماً.

غادرت باب المكتبة بارتياح نسبي فلم يتمكنوا من إثبات أي جرم بحقي ، وجدت أيوب يقف قرب المصعد في انتظارنا وتولى المحامي الطيب سرد التفاصيل لأيوب.

بعد انقضاء التحقيق، عدت إلى مقر عملي، فلم أجد اسمي في جدول المناوبات، وحين سألت رئيسة المقيمات عن السبب

قالت متلعثمة :

_ لا أدري، قالوا إنك ستُنقلين.

كنت أذهب كل يوم إلى المستشفى لأمارس عملي وأتابع تدريبي. لكن الجميع هناك كانوا يتجاهلونني ويتحاشون التقرب مني كأنني مصابة بمرض معدٍ ، وأخيراً، وبعد أسبوع صادفتني سكرتيرة المدير في أحد الممرات، فقالت:

_ دكتورة مريم، في مكتبي أوراق مهمة تخصك.

فعلت على الفور ؛ ذهبت إلى مكتب المدير، وجلست خارج بابه على كرسي في مكتب السكرتيرة انتظر، وبعد عشرين دقيقة أطلت ترسم على وجهها ابتسامة بلاستيكية لا يمكن ترجمتها بأي شكل .

ناولتني رزمة متكونة من ثلاث أوراق؛ الأولى قرار فصلي من البورد ، والثانية قرار إيقافي عن العمل في وزارة الصحة العراقية، والثالثة قرار سحب تخويلي ممارسة الطب من قبل نقابة أطباء العراق.

كان هناك الكثير من المعارك التي تعتمل في صدري تنتظر إطلاقة البدء، ولكن دموعي سبقت كل شيء. وأطفأت الموقف برمته ، اختنقت أنفاسي، واحتبس صوتي وغادرت منكسرة صوب البيت، هناك وجدت أيوب وقد أحضر فاطمة من بيت خالتي...

_ أنتَ هنا؟ ألستَ في المناوبة؟ سألت أيوب في محاولة استباقية لتجنب سؤاله عن آثار الدموع في عينيّ وعلى وجهي.

_ تم نقلي.

_ إلى أين؟

_ قرية نائية على الحدود.

_ والبورد ؟

_ فداكم ، تم فصلي منه. قال يصطنع ابتسامة.

غلف الصمت مجلسنا، فلم ينبس أحد منا بحرف طيلة نصف ساعة، حتى كسرت فاطمة حاجز السكوت حين قالت:

_ ماما أنا جائعة.

أخذت الفتاة ؛ لأعد لها البيض المقلي، وأسخن بعض الخبز.

في هذه الأثناء دخل أيوب يجر ساقيه بتثاقل.

_ مريم؟ أفكر في أن أترك مهنة الطب، وأفتتح مكتبة أبي ومطبعته، وأعمل فيهما، ونعيش في سلام من دون مجالس تحقيقية ولا أشخاص مهمين.

كانت الدموع تترقرق في عينيه، أحسست أنه كان في أضعف حالاته.

_ الله كريم... لا تتعجل القرار، باشر عملك في القرية وإن لم تعجبك الأجواء، عد فوراً وقدم استقالة.

كنت أماطله، كيلا يتخذ قراراً مهماً في لحظة ضعف .

_ هل عرفتها؟

_ من؟

_ يمامة.

_ ذاكرتي ضعيفة مريم، وأنت أدرى الناس بذلك ، الصور لا مكان لها في ذاكرتي . من تكون؟ شكلها مألوف لدي.

_ يمامة سالم، كانت معنا في المدرسة الابتدائية.

_ يمامة سالم! ومتى أصبحت تحمل كل هذا الشر؟

_ لا أدري، هل تعتقد أنها تستهدفنا شخصياً؟

_ وهل نحن مهمون إلى هذا الحد؟ قال أيوب ساخراً كعادته.

داؤود

ولدتُ في ملجأ، ليس ملجأ الأيتام، بل حيث كانوا يحتمون من الغارات الجوية في بداية حرب الثماني سنوات، خشيت أمي وجدتي من أن يطالهما القصف إن هما ذهبتا إلى المستشفى، فأرسلتا في طلب القابلة أم ذنون التي ولدت معظم نساء الحي . وهكذا أبصرت النور من خلال ضوء فانوس نفطي تتراقص شعلته في سرداب يبلغ من العمق ست درجات، قطعوا آخر حبل يصلني بأمي باستخدام شفرة حلاقة نوع جيليت ثم ربطوا بقايا آخر ما يربطني بأمي بخيط قطني كان تخرجَ يوماً من معمل نسيج المنصور في الموصل .

ولدت بعيون خضراء بلون حبات الزيتون ، وبشرة بيضاء تعلوها صفرة خفيفة وشعر أشقر منسدل. ورثت ذلك عن أمي، أما أنفي المستدق واستطالة وجهي فقد أخذتهما عن أبي الرجل الكهل الذي كان في منتصف عقده السادس حين أطلقت صرختي الأولى .

هكذا أكون من مواليد الحرب ، ومن حرب إلى حرب أخرى مضت سنوات العمر حتى هذه اللحظة. ولا أحد يدري متى سينتهي هذا الجنون.

كان أبي يعمل إسكافياً ، ورث عن أبيه دكاناً صغيراً يشغل مساحة ضيقة تحت سلالم إحدى البنايات العتيقة في شارع الفاروق تكفي ليجلس طه الإسكافي مع ماكنة خياطة الجلد وآلة تثبيت الأحذية مع بعض الأصباغ و حاجيات أخرى قليلة .

تصليح الأحذية هي المهنة التي ورثها أبي عن جدي وكذلك الركن الصغير تحت السلم . كان أمهر إسكافي في الحي العتيق ، علمه جدي هذه المهنة التي تعلمها بدوره من شليمون اليهودي الذي كان يجول أزقة المدينة القديمة وهو ينادي:

_ قنادر عتيقة للبيع... قنادر عتيقة للبيع.

ثم يأخذ الحذاء القديم مقابل قطعة صغيرة من الحلاوة القاسية ، ومن ثم يجمع الأحذية ليجددها فيثبت لها نعولاً وقيطاناً جديدة ويصبغها فتعود صالحة للاستعمال ؛

ليجلس مفترشاً الأرض في منطقة باب الطوب يوم الجمعة والأحذية التي أصلحها مصطفة أمامه جاهزة للبيع لمن يرغب فيها من العمال البسطاء والفلاحين والقرويين القادمين من الريف لغرض التسوق.

كان أبي رافضاً لفكرة الزواج حتى تخطى عامه الخمسين، وحينها ضغط عليه إخوته ليقنعوه بالزواج والاستقرار وليكون له على حد تعبيرهم ذرية تعنى به في شيخوخته، فاقترن بأمي التي تبلغ من العمر نصف عمره تماماً.

لم تملك أمي حق رفض العريس المسن ، فقد كانت فرصها في الزواج من شاب ضعيفة، إذ كانت تعاني من انحراف في فمها ، عاهة ألمّت بها حين سقطت وهي طفلة صغيرة في مكان نجس على حد تعبير جدتي في أحد "درابين" المحلة ، بينما كانت تلعب مع صديقاتها في المغرب ، فتلبستها جنية وجعلت فمها ينحرف نحو اليمين، وينسدل جفنها الأيسر كلما ضحكت أو شعرت بالتعب ، وهكذا صارت تعرف بساميّة العوصة ، وفي العركات و حين يستدعي الأمر بعض التنمر والقدح والردح من الجارات أو القريبات كنّ يسمينها _ عُوص_ .

لم تشفع لها خضرة عينيها، ولا بشرتها البيضاء ولا شعرها الكستنائي، كل هذه المواصفات لم تتمكن من غض بصر النسوة الباحثات عن عروس جميلة لشاب في مقتبل عمره عن ملاحظة أن فم سامية ليس في منتصف المسافة بين خديها، وقبل أن يُدْبِر الشباب تقدم أبي لخطبتها وما كان من جدتي إلّا أن تعجلتها لتلحق بالعربة الأخيرة لقطار الزواج، وإلّا فستظل واقفة في المحطة مثل فزّاعة العصافير في الحقول!

كان لنا بيت مستقل . يتكون من غرفتين يتوسطهما إيوان ، وحديقة تقع في منتصف الفناء نبتت فيها شجرتا رمان ، وبعض زهور الزينة تزرعها وتُعنى بها أمي وكما في كل بيوت المدينة العتيقة كان هناك سرداب كبير يمتد تحت الأرض على طول البيت من الجهة الشرقية المقابلة للمدخل ، كان بيتنا جميلاً وكبيراً ، وما إن تدخله حتى تغشاك طمأنينة وسكينة ، وكأنَّ روحك تخبرك أنها ارتاحت للمكان .

كان أبي المعروف باسم " طه القندرجي" هادئ الطباع قليل اللغو ، يحب صنع شيء من لا شيء ، فعلبة صفيح فارغة وبضعة مناديل ورقية تتحول بيديه إلى زهرية رائعة... كان يمضي نهاره في إصلاح الأحذية وليله في الإنصات إلى الراديو وإنجاز حرف إعادة التدوير، وحين يأتي الصباح كنّا نجد عند رأس سريره علبة مناديل ورقية مزينة بقشور الفستق المتراصة والملونة بألوان زاهية كقشور سمكة قوس قزح أو زهرية مصنوعة من علبة صلصة طماطم فارغة... وفيها زهور ملونة صنعت من أكياس بلاستيكية مستخدمة وأسلاك ، وأفكار عديدة لا يمكن حصرها .

لأبي روح مبدعة لا يحدها شيء.

كبرت وترعرعت بين بيتنا في محلة الخاتونية وبيت جدي في محلة المشاهدة. علمني خالي السباب، وأقذع الشتائم قبل أن أُتقن لفظ مخارج الحروف ، فكنت ولداً جسوراً لا يجرؤ أيٌّ من أبناء الحي على الاقتراب منه بسوء ، كان خالي حريصاً على أن ينشئني تنشئة صلبة، فقد خشي أن أنشأ مخنثاً لأني أبيض البشرة وذو عينين ملونتين ، فهذا يعرضني لأخطار قد لا يتعرض لها غيري في "الدرابين" المعتمة والأزقة الضيقة. كنت كلما خاطبني رجل أو صبي، وقال لي:

- كم أنت جميل؟

أجبته قائلاً:

_ لست في مثل جمال أمك .

فيغضب المقابل وألوذ أنا بالفرار، تحسباً لاحتمال أن يكون الإطراء على جمال صورتي مقدمة لتحرش من أي نوع ، كانت جيوبي عامرة

دائماً بحصاة وحجارة من كل الألوان والأشكال ، استعداداً لرجم من يحاول المساس بي بعد أن أفلح في الفرار طبعاً ، وفي عمر صغير منحني خالي سكيناً صغيرة، وقال لي: من يحاول أن يلمسك اطعنه بهذه لا تخف .

وهكذا تم تهيئتي لأكون أقوى وأصلب من البيئة القاسية التي تربيت فيها.

في خريف العام ١٩٨٦ دخلت المدرسة ، فكانت بالنسبة إليّ جحيماً لا يطاق ، فعلى الرغم من أنني سريع التعلم،

وأحصل دوماً على درجة النجاح ، لم أحظ بحب المعلمات وتقديرهن ولا التلاميذ، ربما لأنني لم أكن غنياً، ولا أنحدر من عائلة مثقفة!

الرائحون يضربون ، والغادون يضربون ، ومن لا يضرب يسخر ، ومن لا يسخر يتنمر، كانت عصا المديرة وخيزرانة الأستاذ أحمد المعاون تنال من ظهور أصابعنا في صباحات الشتاء الباردة بسبب أو من دونه ، أدنى فوضى تحدث في المدرسة تنهال علينا العصيّ والخيزرانات من كل حدب وصوب .

هكذا كانت مدرستي ربما لأنني كنت لا أنحني أمام الريح ولا أتغاضى عن الإهانات، أو لعل شكل أمي وفمها المنحرف جعل المجتمع ينظر إلي نظرة دونية ، أو ربما لأنني لست إلّا ابن طه القندرجي ، ولست ابن الملّاك الفلاني ولا التاجر العلاني .كان هذا جزءاً من سلسلة من الأسباب التي أدت فيما بعد إلى زهدي في التعليم.

بعد العام ١٩٩١ ضاقت الحال كثيراً، وشحّت لقمة العيش وكان عليّ أن أنزل إلى ميدان العمل حينها كان الهرَم قد نال من أبي فصرت أرافقه إلى الدكان ؛ لأتعلم المهنة وأُعينه على كسب القوت .

كنت أبقى مع أبي في دكان الإسكافي كدوام جزئي، لكنّ معظم وقتي كنت أمضيه أحمل صندوق ماسح الأحذية ، أدور بين محال شارع الفاروق ومنه إلى شارع نينوى ألمّع الأحذية، أجل كنت أعمل ماسح أحذية! أمشي في السوق وأنادي:

_ صباغ قنادر... صباغ قنادر...

كانت مهنتي تدر عليّ دخلاً جيداً عدا ما ينفحني به بعضهم. وقبل أن تغرب الشمس، أعود إلى أبي لنأخذ معنا الأحذية التي لم يتم إصلاحها إلى البيت لنكمل عملنا هناك.

هكذا أمضيت طفولتي وبداية شبابي، سكيني تتدلى إلى جنبي، وجيوبي تثقلها الحجارة والسباب والشتائم تنطلق من فمي نحو من تسول له نفسه المساس بكرامتي. لكنني من الداخل كنت مجرد طفل صغير لم يشبع من ركل الكرة ، ويشتاق إلى لعبة الدعابل على أرضية العوجات المتربة وحارّة وحويرة والركض بأسرع ما يمكن للوصول إلى الديرة بسلام قبل أن تمس كف صديقي الذي يطاردني طرف قميصي، وماجينا يا ماجينا في ليالي رمضان... كنت أتمنى لو أنني أستسلم يوماً لضعفي فأجهش بالبكاء وسط السوق وأنادي :

_ أريد أمي...

لكن كبرياء الرجل الصغير الذي في داخلي كانت تمنعني.

أنهيت دراستي الابتدائية من دون تلكؤ ، أو أي سنة رسوب، وانتقلت بعدها إلى متوسطة الحدباء للبنين أو مدرسة ريما خضوري كما تسميها جدتي بنيت المدرسة في العام ١٩٩٢ على نفقة ثري يهودي بغدادي يُدعى السير ايلي خضوري لتكون مدرسة خاصة بالطائفة اليهودية. وأسماها على اسم كريمته الآنسة ريمة خضوري.

كان أهالي الحي يتحدثون عن جرة مليئة بدراهم الفضة ودنانير الذهب مدفونة تحت أساس المدرسة.

على الرغم مما عانيته في دراستي الابتدائية من تعنيف المعلمات وتنمر الأولاد، غير أنني في دراستي المتوسطة قابلت كابوس حياتي الأعظم .

باسل النجس

في المدرسة المتوسطة كان هناك رهط من الصبية المؤذيين الذين لا يسلم من شرهم رطب ولا يابس، يترأسهم ولد يكبرني بعامين يدعى باسل الملقب بالنجس ، كان أبوه كبيرَ القصابين في المسلخ الرئيس للمدينة. والأحاديث تدور في المدرسة حول أنّ النجس ينجح كل عام بفعل الخراف والهدايا والعطايا التي ترد إلى بيت المدير وبيوت المدرسين مساءً بعد انتهاء الدوام .

وهكذا كان هو في الصف الثالث حين دخلت المرحلة المتوسطة في خريف ١٩٩٣. لم أقف في طريقه ولم اضطر إلى تجنبه، فقد كنت متعباً طوال الوقت من دوراني على كعبيّ من شارع إلى شارع

وصندوق تلميع الأحذية معلق على كتفي وحبل السفيفة يكاد يقد منكبي .

أما عيناي فلم تقويا على النظر إلى أحد لطول سهري وأنا أصلح الأحذية الممزقة، وكعوب أحذية النساء المكسورة، كما أصابتني رائحة الصمغ والأصباغ بسعال يكاد يكون مزمناً وأكسبت بياض عيني حمرة دائمة .

في تسعينيات القرن العشرين، وفي سنين الحصار كان من الصعب على رجال أولي بأس أن يوفروا لقمة العيش، وكيف بي و أنا ابن الثالثة عشر ، كنت أرافق أبي إلى الدكان المتهالك بعد انقضاء ساعات المدرسة لأتركه هناك ، يستلم الأحذية من أصحابها ويصلح ما يمكنه إصلاحه، ثم أحمل صندوقي لأطوف على المحال والدكاكين وأنا أنادي صباغ قنادر... صباغ قنادر ... وقبل الغروب أعود إلى دكان والدي فأحمل معه وارد الأحذية المعطوبة إلى البيت لأصلح ما يمكن إصلاحه ، أما ما يحتاج إلى عمل في الدكان فقد كنت أتركه إلى أيام الجمعة وفي أحيان أخرى كنت أراكم العمل لأتمه يوماً أتغيب فيه عن مدرستي ، وهكذا لم يكن لدي من الوقت أو الجهد ما أُهدره مع ذلك النجس ، حتى تلك الأمسية... حين صحبت أمي إلى دكان قريب لاستلام الحصة التموينية المتكونة من ربع كيلوغرام من السمن النباتي علامة الراعي وربع كيلو من سكر، وخمسة كيلوغرامات دقيق لا يصلح علفاً للحيوانات، وكيلو ونصف من الأرز، وبضع حفنات من الفاصوليا ومثلها من الحمص وبضع قطعٍ من صابون ماركة عطور،

وفي الأعياد كانت الحكومة تصرف لكل عائلة دستة من أمواس الحلاقة وربما علبة من معجون الطماطم.

وقفت وأمي ننتظر دورنا، بينما أمسك أنا بمقبض عربة يدوية بثلاث عجلات، ظهر النجس وكأنه خرج من باطن الأرض نظر إلى أمي، وعوج فمه محاولاً تقليدها والتنمر على هيئتها، هممت بالانقضاض عليه ، لكن أمي منعتني، متعللة بأنها اعتادت على مثل هذه الإساءات، لا أدري متى انصرف ذاك الشيطان كنت منهكاً بمقدار يكفي لأنسى الموقف كله، وما إن وصلت البيت حتى انكببت على الأحذية القديمة، فأمضيت ما تبقى من نهاري وحتى قبيل منتصف الليل في إصلاحها. ما بين لصق بالصمغ وخياطة نعل وتثبيت نصف نعل وتبديل كعب وتغيير لون حذاء بالكامل .

طلع الصباح، فحملت كتبي المربوطة بشريط مطاطي بعد أن انقضى عهد حمل حقائب المدرسة لدى أمثالي من المعدمين منذ أن بسط الحصار عباءته علينا. حثثت الخطى إلى المدرسة، وعند الباب قابلني النجس فصاح بكل صوته:

_ ابن العوصة .

وراح يتبعني في ساحة المدرسة ويغني ورفاق السوء يمشون خلفه ويصفقون

_ سامية العوصة... سامية العوصة ... تأكل القوصة.

لم ألتفت إليهم حتى خرسوا من دون تدخل مني ، كمجموعة من كلاب تنبح حتى تخرس من تلقاء نفسها .

ظننت أن الموقف انتهى عند هذا الحد، ولكن فرقة باسل النجس كانت تنتظرني عند باب المدرسة ساعة الانصراف، وما كان منهم إلا أن زفوني إلى البيت وهم يغنون ويهتفون وباسل يهلهل:

_ سامية العوصة... تأكل القوصة .

لم التفت إليهم حتى فاض بي الصبر قبل وصولي إلى بيتنا حين استدرت إليهم، وشرعت أرجمهم بالحجارة، أصابت إحدى حجارتي عين النجس... فولّى هو وجمعه متوعدين ومهددين.

علمت بعدها أن إحدى حصواتي فقأت عين النجس ومزقت سوادها، الأمر الذي أدى إلى انطفاء بصرها. لم أبت ليلتي تلك في بيتنا، هربت إلى بيت جدتي تحسباً لرد فعل محتمل من باسل وعائلته، لكن شيئاً لم يحدث، وعدت إلى بيتنا بعد ثلاثة أيام متوجساً وجلاً. لا أدري لماذا لم يشكوني باسل لأبيه أو للشرطة أو على الأقل لإدارة المدرسة... ولماذا ادّعى حسب ما بلغني من أخبار أن حجراً طائشاً أصاب عينه في أحد النزاعات.

وبعد أسبوع عدت إلى حياتي الطبيعية التي لم تعد المدرسة جزءاً منها، فقد صرت عاملاً بدوام كامل ما بين إصلاح أحذية الفقراء، وتلميع أحذية الأغنياء أقضي فترة الصباح في دكان أبي أستلم من الفقراء أحذيتهم الممزقة والمخلوعة والتي زاد تمسكهم بها بسبب عسر الحال و الفقر الذي خيم على البيوت في تلك السنين، لأعود إلى البيت في الظهيرة أتناول غدائي وأهرع مسرعاً إلى السوق.

صندوقي يتدلى على كتفي أجوب أسواق المدينة أصبغ وألمّع أحذية من يرغب من رواد السوق . أما أبي فقد كان يمضي معظم أوقاته في

حياكة الأخفاف أو ما كان يسمى " الگيوة" ... وهي حذاء يحاك بخيوط خاصة على نعل ، كنت أشتري النعال والخيوط من باب الطوب أثناء جولتي المسائية في قلب المدينة، كانت صناعة الأخفاف وبيعها تساعد في تأمين مصاريف البيت.

كبرت قليلاً، فاستبدلت بسكيني الصغيرة سكيناً أكبر يزيّن نصلها وعل بقرون ضخمة، ولها مقبض خشبي لماع وحلقة صغيرة ، كنت أعلقها في حزامي لتنفر الحلقة وتظهر للعيان فتردع كل من تسول له نفسه الإساءة إلي أو لمسي بلمسة لا أرضاها.

لم تبرح حكاية باسل النجس ذاكرتي قط، لماذا لم يشي بي ولم يشكوني لأي سلطة ؟ وظل عقلي يفكر فيما قد يخطط له، وما ستجلبه إلي الأيام القادمة.

مضت الأيام مسرعة و حلّ العام ١٩٩٤ وفي يوم من أيام الشتاء الباردة ، وبينما كنت أفترش الرصيف في شارع غازي قرب عربة لبيع "اللبلبي" أحتسي شيئاً من حساء الحمص الساخن أستعين به على برد كانون القارس، ركل عابر سبيل صندوقي المستريح إلى جواري على الرصيف حيث أجلس رفعت عيني من فوري لأرى الفاعل وأنا أتمتم:

_ عمى... عمى...

فإذا بالنجس ، بهامته الضخمة ونظرته الشبيهة بنظرات ضبع ، وقامته العظيمة وجسده المتين ، رميت كأس الحمص جانباً، واستللت سكيني من جنبي وسحبت حلقتها ليلمع نصلها في عينه المتبقية ، فهرب من مواجهتي كعادته مستعيناً بابتسامة كريهة ككل شيء فيه وقال :

_ ها ابن العوصة.

تأهبت للانقضاض عليه، ولكن رجلاً ضخم البنيان مهيب الطلعة يرتدي "دشداشة" بنية خرج من محل الساعات القريب صاح الرجل في باسل، وكأنه يخاطب كلباً سائباً :

_ أثول مخربط ... ما تشوف ، كان الله بعج عينك اللخ فغد مرة عليش خلالك هيه ما طول ما تفسغ بيها .

(أيها الغبي ألا تبصر طريقك... لو أن الله فقأ عينك المتبقية فما حاجتك إليها ما دمت لا ترى طريقك.)

ثم صفعه على ظهر عنقه ، اندفع النجس يمشي أمامه برأس مطأطأ، في هيئة أقرب إلى كلب ذليل منها إلى صبي في السادسة عشر من عمره.

علمت من بائع "اللبلبي" أن الرجل الضخم ليس إلا رزّاق القصاب ، وأن باسل هو ابنه من زوجته الأولى المتوفاة.

استنتجت أن فقاعة الذعر التي يحيط بها النجس نفسه ليست إلا ردة فعل لاضطهاد وتعنيف من محيطه الأسري، وهكذا لم يخبر أباه بأني أنا من فقأت عينه، لعلمه أنه لن يلقى سوى التأنيب والإهانات.

باسل رزّاق القصاب

اسمي باسل ولدت في أواخر العام ١٩٧٦، نشأت على يد عمتي بعد وفاة أمي. والدي رزّاق "القصاب" الرجل شديد البأس يهابه الرجال والنساء ، و ينحني له كل من في سوق الجزارين من بشر وبهائم على حدٍ سواء، اعتاد ذلك منذ صباه حين كان يتجول في "درابين" المحلة ... مشمراً عن ساعديه المزينينِ بوشوم لثعابين وتنانين، تزين أصابع كفه الأيمن قبضة حديدية، و تستريح تحت نطاقه الجلدي الذي يزنر قوامه الضخم سكين بغمد مصنوع من جلد تمساح . وهو متأهبٌ دوماً لتأديب كل من تسول له نفسه الوقوف في وجهه.

لم يصادف أن عانده مخلوق، الكل يخضع لجبروته حتى جاء اليوم الذي اجتمع فيه بأهل أبيه ليكتشف أن ابنة عمه عزيزة التي كانت في الأمس طفلة صغيرة يلاعبها، قد كبرت وأضحت شابة بارعة الجمال كثمرة أينعت وحان قطافها، في الحال وفي المجلس ذاته الذي يجتمع فيه أعمام والدي طلب يد ابنة عمه من دون المرور بجدي أو أي من كبار العائلة وحين أجابه عمي أنّ الرأي الأخير للبنت ، وأنه سيرد عليه بعد أيام ، ضحك أبي ساخراً وقال لعمه :

_ ومنذ متى صار للبنات رأي... العرس بعد أسبوعين ونقدية البنت جاهزة تستلمها اليوم بعد صلاة العشاء.

اقتاد أبي جدي وبعضاً من رجال العائلة مرغمين وأخذهم إلى بيت جدي لأمي وتمت مراسيم الخطبة القسرية و قراءة الفاتحة وتسليم نقدية

عزيزة التي ستصبح أمي التي لم ترها عيناي أو على الأقل لا تحتفظ ذاكرتي لها بأي ذكرى ، غير تلك التي نقلت لي من عمتي وجدتي .
تم الزفاف كما خطط له رزّاق، ولكن المهرة هذه المرة لم تكن سهلة القياد، ولم تُخضع رقبتها لسكين الجزار طواعيةً ، إذ كانت الأقاويل تدور في الحي أن هنالك من سرق قلبها وربما عذريتها .
كان لابد له أن يستخدم العنف لإخضاع فريسته، فكان ما كان من ضرب وسب وشتم استهل به حياته الزوجية ، التي كنت أنا ثمرتها .
وتحكي عمتي أنه حين أصبح الصباح وذهبت النسوة لتفقد العروس في بيتها القريب من بيت جدي، فوجئن بالكدمات وأثار الضرب التي تعلو وجهها والزرقة الغامقة التي تعلو جفنها المتورم... أيقن الجميع ساعتها أن عناد عزيزة لن يرسو بها إلى بر ، فرزاق لا يستسلم ولا تُنكس له راية، أمضت أمي مع أبي كما تروي عمتي عشرة أشهر وأسبوعين، وكان صوت صراخها واستنجادها يسمعه كل سكان المحلة، إذ كان أبي يبرحها ضرباً كل مساء بعد عودته من عمله في المسلخ ويرميها بأقذع الشتائم وأقبح النعوت.
بعد شهر من العرس دبت بذرتي الملعونة في رحمها، ولا أحد يدري كيف لم تجهضني أمام ركلات أبي الذي كان يتعمد ركل بطنها، بينما يصرخ فيها :
_ من أين أتيت به؟ ابن من هذا يا فاجرة ؟
أكملت أمي حملها لتضعني، وشاءت السماء أن أرث سحنة أبي البغيضة لأشبهه كصورته في المرآة .

_ سبحان من يبرئ البريء، لو لم تكن نسخة مطابقة له، لكان أنكر نسبك إليه .

هذا ما كانت تقوله عمتي .

وفي أحد الأمسيات ضاقت الدنيا بعزيزة ويئست من أن يتركها رزّاق ترحل إلى بيت أبيها بسلام فقررت إنهاء معاناتها بنفسها. دخلت الحمام بعد أسبوعين من ولادتي، وأقفلت الباب عليها من الداخل ولم يتطلب الأمر منها سوى صفيحة گاز ، و عود ثقاب ؛ ليهرع الجيران بمن فيهم أهل أبي إلى إطفاء الحريق الذي أعلن عن نفسه من خلال الدخان المتصاعد من الكوة الصغيرة في أعلى جدار الحمام

هكذا انتهت سنين عزيزة الستة عشر، انتهت كجثة متفحمة مطموسة الملامح، وطفل عمره أسبوعين تدور بي عمتي من باب مرضعة إلى أخرى طمعاً في رضعة أو رشفة من لبن.

لم يشف رحيل أمي المأساوي غليل أبي منها . فكيف تجرأت على إنهاء حياتها معه بنفسها؟

لم يرضه أنها اتخذت القرار، قرار التفريق بنفسها، كان ذلك يؤلمه ، فانتحارها كان يعني أنها هي من اختارت الرحيل، وفرضت عليه إرادتها ، وهكذا صرتُ الحائطَ الذي صب عليه أبي لعنات كبريائه الجريحة من امرأة رفضته وفضلت الموت حرقاً على عمر تمضيه معه.

انتقلت عمتي العازفة عن الزواج للعيش معنا، فكانت لي أم ودرع يقيني من بطش أبي، لم يكن أبي يُبرحني ضرباً كانت فقط صفعات

سريعة على ظهر رقبتي، لم تكن تعني شيئاً أمام سياط إهاناته التي جلدني بها يوماً بعد يوم لعقدين ونيف.

_ ابن العاهرة، ابن الزانية، ماذا ستكون؟ لن تكون أحسن من أمك العاشقة التي انتحرت حين رفضت أن أطلّقها لترحل مع عشيقها.

وهكذا كل يوم .....كانت عمتي تثور عليه حين ينعت أمي بالعاهرة في البيت كنت مسلوب السلطة والكرامة ، جلوسي ، قيامي ، طريقتي في تناول الطعام ، أسلوبي في الحديث كلها تغضب أبي وتثير نهمه المستمر إلى انتقادي ونعتي بابن الزانية ، فما إن يعود أبي بعد غياب الشمس، حتى تبدأ سلسلة عذاباتي . إخوتي وأخواتي من زوجته الثانية كانوا يشعرون بالغبن والظلم الواقع علي، ويتعاطفون معي ؛ ولكنه كان تعاطفاً أبكم، فلا أحد يجرؤ على الاعتراض أو حتى إبداء الرأي.

وحين كبرت عمدت إلى تقوية نفوذي وسطوتي خارج البيت، فكنت أعذب القطط واصطاد العصافير بمساعدة أفخاخ أعدها بنفسي ، ثم أدق أعناقها و أرميها جانباً. أضرب الأولاد في الحي، وأرشق المارة بالحجارة... كنت أفعل أي شيء يشعرني بالقوة. عجزت عمتي أن تثنيني عن أفعالي... وحين يئست من نصحي وإصلاحي صارت تقول :

_ ستصبح أسوأ من أبيك.

وهكذا، و بسبب سوء أفعالي صرت أُعرف بباسل النجس.

وحين صحبني والدي يوماً إلى المسلخ تمهيداً لتسلمي مفاتيح المهنة الموروثة عن أجدادي، اصفر وجهي وأصابتني نوبة إقياء حين حزّ أبي عنق الثور . أرعبني منظر الدم المتدفق وصوت حشرجة الأنفاس

الأخيرة للدابة، فغادرت المسلخ إلى غير عودة وسط تأنيب أبي ونعته لي بجبان وحريمة ... وهكذا قُطعت آخر الجسور التي كان بإمكانها أن توصلني يوماً إلى أبي.

على الرغم من كل هذا كان أبي حريصاً على تعليمي ولكن بطريقته هو. فالطريق إلى تحصيل العلم في منظوره ليس عن طريق المثابرة، وإنما من خلال إغداق العطايا على المعلمين والمدرسين لمنحي درجة النجاح أو التفوق إن لزم الأمر، وهكذا أفسدني أبي

تماماً، فلم أعد صالحاً لأي شيء. ونلت عن جدارة لقب النجس .

حتى جاء اليوم الذي غير فيه داؤود العُوصة تاريخ حياتي ، وحولني من النجس إلى الأعور .

ما زلت أذكر يوم كنا نقطع أنا وأبي شارع الفاروق بسيارتنا البيك أب نوع داتسون موديل ١٩٨٥حين أشار أبي إلى فتى يمشي إلى جانب الطريق، و صندوق تلميع الأحذية المزدحم بعلب الطلاء والوارنيش والفراشي وقطعة من قماش ملوثة بمادة سوداء يرتاح على كتفه، أشار أبي إلى الفتى وقال:

_ هكذا ينشأ الرجال الشجعان. المسؤولية تصنع الرجال.

نظرت إلى الصبي فتذكرت على الفور أنه

طالب في الصف الأول المتوسط في المدرسة التي ارتادها نفسها.

وفي صباح اليوم التالي، وقفت له على باب المدرسة انتظره وما إن دخل حتى ناديت بصوت منغم عالٍ:

_ صباغ قنادر.

فانخرط كل من في ساحة المدرسة في موجة ضحك عارمة، لم ينبس الفتى حتى خُيّل لي أنه لم يلحظ ما حدث .

تكفّل أحد الرفاق بسرد السيرة الذاتية لداؤود على مسامعي ، وقبل غروب شمس ذلك اليوم صحبني الفتى ذاته إلى المنطقة حيث يقطن فتى تلميع الأحذية، فإذا به أمامي يدفع عربة حديد يدوية بثلاثة إطارات. وأمه بفمها المنحرف يميناً وجفنها المنسدل تمشي إلى جواره. فبادرت إلى مشاكسة السيدة، فحرفت فمي في إشارة تهكمية، محاولاً استفزاز الفتى، لكن أمه ثنته عن ذلك، فانصرفت وأنا أبيّت له نية لا تخطر على بال.

وفي الصباح التالي وقفت كعادتي في باب المدرسة أترصد الشارد والوارد أضرب هذا وأشتم ذاك حتى ظهر داؤود. وهناك أشرت إلى رهطي ليبدؤوا بإلقاء النشيد الذي دربتهم عليه جيداً منذ الصباح الباكر :

_ سامية العوصة... تأكل القوصة .(القوصة تعني رغيف الخبز بالمحكية الموصلية .)

واستمر رفاقي ينشدون نشيدهم أمام صمت داؤود حتى خرج لنا معاون المدير وصاح بنا طالباً منا التوقف عن إثارة الضجة .

وبعد المدرسة رافقنا داؤود حتى مشارف المنزل حيث يعيش مع عائلته ونحن نهتف له ونغني

_ سامية العوصة تاكل القوصة.

وفجأة دس الصبي يده في جيبه وأخرج حفنة من الحجارة وانهال علينا رجماً، الملعون، كان يملأ جيوبه بالحجارة تحسباً لموقف كهذا.

أصابت حصاة مدببة عيني اليمنى فمزقت سوادها، و أوقفتها تماماً عن العمل ، فأمست كرة بلورية مُطفأة.

الغريب أن أبي لم يلحق بي إلى المستشفى ، وحين خرجت استقبلني استقبالاً يليق بمحارب خسيس مثلي، إذ بصق ملء وجهي وقال:

_ تفووو عليك رايح تتشاطر على ولد فقير يشتغل صباغ قنادر وأمه مريضة ، تمشي بالشارع وتصفق وتهلهل مثل النسوان ، وتصيح سامية العوصة... علوا ابن العوصة ذبحك وخلصني من عارك.

لا بد أن أحد أصدقائي وشى بي عند أبي، لم توجعني وشاية أصدقائي، ولا إهانات أبي التي اعتدت عليها منذ الصغر قدر ما آلمني أن داؤود العُوصة نجا بفعلته فقد فقأ عيني ثم حصل على حماية أبي . نال حصانة رزّاق القصاب ، ذلك الكيان الذي لن أتمكن من قهره يوماً ، لكن الدنيا طويلة يا ابن العوصة والأيام بيننا.

تسعينيات ... داؤود

تغيرت المدينة كثيراً في حقبة التسعينيات. فقدت الشوارع الكثير من بريقها وبهتت الألوان كلها، وشح كل شيء حتى القمامة لم تعد تتراكم كما كانت من قبل. سلال الخبز الجاف اختفت من على الأبواب صار كل شيء للبيع ، شوال دقيق فارغ بمئة دينار صفيحة سمن نباتي فارغة بـ ١٥٠ ديناراً، الخبر الجاف الكيلو غرام الواحد مقابل ٥٠ ديناراً، نخالة الطحين الصفيحة ممتلئة بـ ١٥٠ ديناراً .

الباعة كلهم كانت أعمارهم دون ثمانية عشر عاماً . بمعنى آخر العمالة كلها كانت دون عمر الجندية فما إن تبلغ الثامنة عشر من العمر، حتى تُساق إلى الوحدة العسكرية بوصفك جندياً مكلفاً ؛ إذ تمضي أياماً عدة من كل شهر في ثكنة عسكرية، وبعدها إن كانت الظروف مؤاتية ، ولم يكن الجيش في حالة إنذار سيسمحون لك بزيارة أهلك في إجازة تدوم سبعة أيام ، وبناء على ذلك تزود بورقة تثبت أنك مجاز من قبل آمر الوحدة هذه الورقة تسمى أنموذج إجازة ، و كل أنموذج له تاريخ نفاد يتلخص بعبارة " من..... لغاية" أي من اليوم كذا من شهر كذا ولغاية اليوم كذا من شهر كذا وقبل بلوغ الغاية عليك أن تقفل راجعاً إلى جحيمك الذي ستمضي فيه ثلاثة أسابيع على الأقل، وهكذا مدة ثلاث سنوات إن لم تحصل على مؤهل جامعي، أو ثمانية عشر شهراً إن كنت تحمل إجازة جامعية، وكل هذا قابل للنقض إذا ارتأت القيادة خوض معركة مصيرية جديدة على حد تعبير مذيعي نشرة الأخبار.

طرأت على معجم مفرداتنا صفة جديدة وهي "جندي أفرار"

أو هارب من الخدمة العسكرية ، وكان هؤلاء الهاربون من الخدمة إما أن يحملوا دفاتر خدمة مزورة يقدمونها إلى مفارز الانضباط التي قد تستوقفهم هنا أو هناك ، وإما قد يستعينوا بأنموذجات إجازات عسكرية مزيفة يعدها أناس مختصون طرؤوا على المعجم الاجتماعي آنذاك . وإن كنت من أبناء الأغنياء والموسرين فيحق لك أن تحصل على أنموذج إجازة حقيقي وقانوني ساري المفعول مقابل مبلغ من المال أو هدية تقدمها إلى الجهات ذات العلاقة. وهنالك من يدبر أهله أمر

تسريحه من الخدمة العسكرية مقابل المال (مرة أخرى) من دون المرور بالمزور... فتكون أوراقه سليمة وقانونية.

اما "الفرارية" الذين لم يتدبروا أمرهم، وتم القبض عليهم فيودعون في سجن يسمى سجن التسفيرات تمهيداً لإحالتهم إلى وحداتهم العسكرية ، ومن ثم محاكمتهم ، وفي الغالب كانوا يحاكمون بالسجن في سجون خاصة تقع داخل الثكنات العسكرية... ليكملوا بعدها ما تبقى لهم من مدة الخدمة.

بدأ عدد النساء اللواتي يمشين برؤوس حاسرة ينحسر وتزايد عدد المحجبات وظهرت بعض المُنقبات. وظهر في الشارع رجال بأثواب قصيرة ولحى طليقة غير مشذبة يمضغون السواك معظم الوقت ، ويسعون إلى الجوامع والمساجد ما إن يصدح المنادي:

_ الله أكبر .

وذات مرة كنت ألمّع حذاء أحد الملالي في مقهى قريب من دوّار الساعة، فسألني بنبرة لا تخلو من جفاء .

_ تشم السيكوتين (الصمغ)؟

_ لا .

_ كذاب... لماذا عيناك حمراوان إذن.

_ لأنني أعمل اسكافياً طوال الليل لأعيل أهلي والصمغ جزء من عملي .

تعاطف المُلا معي، وطلب مني أن أوافيه في أحد المساجد للحصول على معونة مالية.

أخبرت خالي بعدها عن أمر الملا والمعونة المزعومة، نهرني بشدة محذراً إياي من الاقتراب من الملالي ، أو التردد إلى أماكن تجمعهم، و أن الدولة تتحين الفرصة للقبض على الإسلاميين وايداعهم في السجون.

اجتث خالي فكرة ذهابي لتلقي المساعدة من الأخوة المتدينين من تفكيري بالكامل .

عدا تزايد عدد المحجبات، وظهور الملالي، فقد كثرت بيوت الدعارة فلم يكد شارع يخلو من بيت مشبوه .

كنت قد اعتدت أن أبدأ جولتي الصباحية كل يوم بالمرور على مكتبة العم حيدر

" جار العمر " كما كانت جدتي نجاة تسميه؛ إذ جاورت عائلة العم حيدر بيت جدي لسنوات طويلة في الحي القديم، وكانت جدتي كلما ذكر حيدر في معرض الحديث تتمتم بالدعاء لوالدة حيدر بالرحمة والمغفرة

_ رحمة الله عليك يا سيدية...

طُبعت هذه اللازمة في ذاكرتي ، وصرت

أرددها كعبارة شكر للعم حيدر على طيب معاملته وإحسانه إليّ .

أضاف حيدر إلى مكتبته جهاز نسخ حين ضعف سوق الكتب والقرطاسية . أمسى تحصيل لقمة العيش صعباً في التسعينيات فكيف برفاهية الحصول على كتاب ؟

كان حيدر يرفض قطعاً أن أجثو تحت قدميه ، بينما ألمع حذاءه بل كان يخلع الحذاء و يعطيه لي لألمعه في ركن المحل، ثم يمنحني

أجري وإكرامية سخية وفي بعض الأحيان كان يطلب لي "استكان" شاي من "الجايجي" القريب، كان يقول لي دوماً :

_ داغود خوش زلمة.

كان يستبدل الواو في وسط اسمي بالغين، أسلوب قديم في لفظ اسمي عفا عليه الدهر... لكنني كنت أحب ذلك من العم حيدر .

أيوب يكبرني بعشرة أعوام. تقول أمي إنه صديق خالي .

أو بالأحرى خالي صديقه الوحيد ، إذ لم يكونوا يختلطون بالناس كثيراً.

كنت أعلم أنّ لأيوب أخاً أصغر منه، لا أدري ما كان خطبه ؟ لكنه لم يكن على ما يُرام.

وذات مرة بينما كنت أشرب الشاي الذي طلبه لي حيدر أمام المكتبة، دلفت إلى المحل سيدة فارعة الطول تحمل كيساً يدل على أنها كانت تتسوق، تتبعها فتاة تبدو في مثل سني ارتسمت البهجة على وجه العم حيدر حين قالت الفتاة:

_ هلو بابا .

كانت عيناه تفيضان بالعاطفة نحو الفتاة... كمن يتطلع إلى درة نادرة حباه الله بها.

استرقت بضع نظرات إلى الفتاة التي علمت فيما بعد أنها ابنتهم الوحيدة زينب. وجه كالبدر وخدود ممتلئة، وبشرة متوردة تشبه بتلات الورد الجوري حتى يخيل إليك أن نسمة هواء قد تؤذيها ، أهداب طويلة وحاجبان بارزان وعينان سوداوان واسعتان. تعجلت غض بصري عن الفتاة قبل أن يلحظ الأب انبهاري بها .

كم كانت زينب جميلة ورقيقة!

حملت صندوقي ومضيت في طريقي قبل أن تنتقل عدوى بؤسي إلى الفتاة المدللة الجميلة، فكل شيء يمكن حدوثه، إلا وجود تحفة كونية كزينب قرب ماسح أحذية بائس مثلي .

كانت الأقاويل والهمهمات تملأ السوق حول معتقد العم حيدر وديانته ، فهناك من يقول إنه يعبد الطبيعة، وهناك من يزعم أنه لا يعترف بوجود الله، ونظراً لتجوالي بين المقاهي والدكاكين عرفت أصل الحكاية، ففي منتصف السبعينيات اعتقل رجال الأمن العم حيدر بتهمة حيازة كتب ممنوعة، و كان من ضمنها كتاب لكارل ماركس، وكتب أخرى عن الشيوعية، ومنذ ذلك اليوم صار الجميع يعتقد أنه ليس على دين الإسلام.

لا أدري لماذا ؟ ربما لأنه لا يصلي في المسجد كما يفعل أغلب رواد السوق .

كنت شديد الانتباه إلى تصرفات العم حيدر وطريقة كلامه، كان لا يكثر القسم كما نفعل... وليس في تعامله ما يشي بأي توجه ديني . غير أنه كان عالي الخلق كريم الطباع سمحاً ومحباً للخير. هل يُعقل أن تكون هذه الصفات صفات زنديق كافر كما ادّعى أحد الملالي . ظل معتقد العم حيدر وديانته لغزاً لم أتمكن من حله يوماً .

باسل

الصغار يكبرون، والكبار لا يطيلون المكوث على عروش جبروتهم وسلطانهم ، وهذا ما حدث لأبي، كان يظن أني سأظل صغيراً يصفعني هنا ويبصق في وجهي هناك، ويكيل لي من الإهانات ما يحلو له وقتما شاء... جاء القدر من دون موعد مسبق. كنت مع ثلة من رفاقي نجلس على شاطئ دجلة نعاقر الخمر، وبعد انقضاء الثلث الأول من السهرة، انضم إلينا نديم جديد. كانت الخمر قد بدأت تغبش تفكيري ولكني كنت لا أزال يقظاً، بدا نديمنا الجديد مرتبكاً رفض الكأس الذي قدمته له.

_ ليس هناك وقت هيا نغادر .

_ لماذا، يا رجل، الليل لا يزال في أوله .

_ باسل، اصحَ، والدك يلفظ أنفاسه

الأخيرة .

_ قل غيرها يا رجل ! لقد تركته منذ ساعتين كحصان سباق، لا يشكو شيئاً.

طارت نشوة الخمر من رؤوس الرجال، وهموا بالنهوض وتناول أحدهم الكأس من يدي بينما يتعجلون مغادرتي، أحسست بشيء من الخوف، ولكنني سرعان ما دفنت خوفي وعدت إلى عربدتي :

_ لا تخافوا، رجل مثل رزاق لا يموت، لا شك أنه سيصرع ملك الموت وينجو. قلت ضاحكاً، لكن ندماء خمري لم يضحكوا هذه المرة،

_ إذن مات أبي. هكذا قلت في نفسي.

عدت مسرعاً إلى البيت... ضوضاء وجلبة رجال يدخلون ويخرجون، وعويل النسوة يصل إلى سابع جار... هذا ما تبدى لنا ما إن مالت السيارة لتدخل الطريق المؤدي إلى بيتنا. الغريب أن شيئاً في داخلي لم يتحرك...

لم يهزني رحيل أبي قيد شعرة، حتى أصدقائي السكارى بكوه بحرقة بينما عجزت عيناي عن سكب دمعة واحدة حزناً عليه، أ لهذه الدرجة بات قلبي فظاً غليظاً ؟

إن لم يحزنني رحيل أبي ؟ أفلا ترهبني قسوة الموت وهيبة الرحيل ؟ مرت أيام الحداد كيفما اتفق ، لم أتواجد في أي مجلس عزاء بل كنت أعيش روتيني اليومي بين متجر العطور والشقة التي فوقه حيث كنت ألتقي عشيقاتي ، أغلقت مكتبي في سوق باب سنجار لمدة ثلاثة أيام عن أعين الناس . تكفل أخوتي غير الأشقاء بتلقي التعازي واستقبال المعزيين ، وبعد أسبوع بالتمام والكمال فاتحت أكبر أخوتي وهو يصغرني بعامين بأني أرغب في تقسيم التركة وأخذ نصيبي والاستقلال عن بيت أبي، صُعِق المسكين من هول الصدمة فقلبه النظيف، وعقله الذي لم تلوثه بعد سوء النوايا لم يستوعب أن ابناً قد يفكر في حصة من ميراث بعد أسبوع على رحيل والده. حتى قبل أن يجف الدم في عروق الأب الراحل، كان الشاب مثقلاً بالحزن فلم يجادلني.

لا ألومه، فقد مات أبوه، أما أنا فقد مات سجّاني وحريٌّ بي أن أتعجل حريتي، وبعد شهر كانت كل من عمتي وأرملة أبي قد تدبرتا أمريهما، وحصلتا لا أدري من أين على مبلغ المال الذي يعادل حصتي من تركة أبي.

لم أسأل عن التفاصيل، كنت أريد أن أمضي بعيداً عن مستنقع الذكريات. كانت حصتي تكفي لشراء بيت في جانب المدينة الأيمن، ويتبقى لي مبلغ من المال سأعزز به تجارتي.

وبعدها التقيت مازن، وصرت ذراعه الأيمن وظله وظل والدة زوجته في المدينة، مما عزز سلطتي وسطوتي على رواد السوق من رواد وتجار. علا نجمي وكبرت بسرعة، لكنني لم أنسَ ، وإن نسيت تذكرني مرآتي كل صباح بذاك الولد المعدم المتعجرف على الرغم من كونه لا يملك خبز يومه ، ذاك الذي فقأ عيني ذات يوم. والذي كان أبي كلما رآه يمشي في الشارع وصندوق تلميع الأحذية متدلٍ عند خاصرته يقول:

_ الرجال يولدون رجالاً.

داؤود العُوصة وُلِدَ ليكون رجلاً، أما أنا فولدت لأكون ابن عاهرة ومشكوك في نسبي.

_ يوماً ما ستلتقي الوجوه يا داؤود، ونرى من هو الرجل .

كنت أمني نفسي باللقاء وينسج لي خيالي قصصاً عن بشاعة الانتقام الذي سأنزله بذلك الوضيع.

فتارة كنت أحلم أنني سأفقأ إحدى عينيه الشبيهتين بحبتي زيتون يانعتين، ثم أربطه بعدها على جذع شجرة ، ثَم أجلده حتى الموت، وتارة أخرى كنت أقول إنني سوف أحبسه في سرداب مظلم من دون ماء ولا طعام.

و حين استقر وضعي وازدهرت تجارتي بعثت من يقتفي أثره، كان اصطياد ذلك المغفل سهلاً، إذ لم يكلفني أكثر من زوج من الأحذية.

وجاءت الليلة المنتظرة، ها هي الطريدة تقترب من الفخ، وتدخله بكامل إرادتها .

كنت أقف في مكان ما في حديقة بيتي متوارياً خلف أغصان الأشجار حين دخل ابن العوصة من باب البيت يقوده عامل أجير يعمل عندي بأجر يومي. دخل الرجل المولود رجلاً إلى عش الدبابير، رأيته ينزل درجات السرداب، فتبعته بخفة وعُجالة وقبل أن أُجهز عليه، شتت انتباهي صوت على باب السرداب تلقيت بعدها ضربة غيبتني عن الوعي.

داوود شتاء ١٩٩٧

لا شيء جديد، إنها الأيام تمشي كعادتها. تسحق كل من يقف في طريقها . طريق الشقاء أسلكه كل مساء وصندوقي معلق على كتفي، أمسح أحذية المارة ؛ الشريف منهم والداعر، اللص والنزيه، الغني والفقير، و صباحاتي أمضيها في إصلاح الأحذية وتبديل النعال وتثبيت الكعوب.

قرأت ذات مساء على يافطة سوداء معلقة على بوابة أحد المساجد في سوق المدينة:

انتقل الى رحمة الله الحاج عبد الرزاق القصاب إثر نوبة قلبية

كانت النوبات القلبية والموت المفاجئ، هما تقليعة ذلك الشتاء من العام ١٩٩٥. على اعتبار أن الجوع والعوز والفاقة أُمور مِسَلمٌ بها في زمن الحصار.

موت رزاق القصاب لا يعنيني بشيء، لكنّ هاجساً من قلق تسلل إلى قلبي، لا أدري لماذا ؟

ولأنني غير مرئي وبوصفي ماسح أحذية معدم كان الناس لا يعيرونني انتباههم ، ولا يتكلفون عناء قطع أحاديثهم السرية في وجودي ، جعلني ذلك أسمع كل الأخبار في محال التجار الكبار وعلى ناصيات الشوارع وفي المقاهي، كنت خازن أسرار المدينة وحامل أخبار أهلها من صغيرهم إلى كبيرهم .

سمعت في أحد المقاهي رجلين يتحدثان عن باسل الأعور ، الذي سطع نجمه في عالم المال بعد تعرفه إلى صهر رجل مهم في الدولة، و هو يعمل الآن لصالحه فيستورد الأطعمة الفاسدة وحليب الأطفال منتهي الصلاحية... و من ثُم يزوِّر تاريخ النفاد ويبيعه للناس الطالح بسعر الصالح، وقيل إنه يتاجر في أملاك المسيحيين الذين هاجروا هرباً من الجوع . الكثير من الأخبار والشائعات . باسل صار الرجل الثاني في المدينة بعد الصهر المبجل، وفي مكان آخر سمعت أنه يعاشر ابنة المسؤول ذاته في الخفاء .

خلاصة الكلام صارت المدينة تحت سطوة وجهي السلطة ؛ وجهها الشرعي و وجهها العاهر. أما رجل السلطة نفسه فلا يحل ولا يربط ، والأمر كله بيد السيدة التي زجت صهرها في السوق ليكون يدها التي تقطف الثمار وسيفها الذي يبطش بمن يقف في طريقها ، ومن ثم نجح الأعور في تسلق الموجة... فكان ذراع الصهر الأيمن وشريكه في حب الأميرة.

رجل الحذاء الإيطالي داؤود

كان من بين زوار دكاني البسيط ذات صباح رجل ثلاثيني يتكلم بلهجة محلية أميزها جيداً، وأعلم علم اليقين في أي عوجة من عوجات الحي القديم عاش أسلافه ومن أي باب من أبوابها غادروا حين توسع العمران. زارني للمرة الأولى يحمل حذاءً لا يزال يلمع، قال إنه حصل عليه هدية من صديق زار إيطاليا... لكن رائحة دواء العث المنبعثة من الحذاء اللماع فضحت الأمر، فأنا إسكافي، و قد سمعت عن سوق الأحذية المستعملة في محافظة شمالية قريبة، كان الحذاء من واردات البالة، صدّقت الكذبة بإرادتي ثم سألت :

_ وما المطلوب مني.

_ هل تستطيع تصغيره؟

_ نعم أستطيع ثم قلبت الحذاء ونظرت إلى أسفل النعل حيث المقاس مكتوب وقلت :

_ إنه مقاس ٤٤ فكم تريده أن يكون.

_ ٤٢.

_ اتفقنا... ولكنني سآخذ سبعمائة وخمسين ديناراً .

_ كثير يا أخي، خمسمائة تكفي.

_ ليكن، عد بعد أسبوع.

انصرف الرجل ولكن الأمر برمته بدا لي تمثيلية سخيفة أعجز عن استيعابها، لم أسمح للهواجس أن تسكن عقلي، فلعنت سوء ظني ورجعت إلى عملي، وبعد أسبوع عاد الرجل الذي ولا يحمل أي علامة

فارقة، ليستلم حذاءه. قاس فردتي الحذاء وكان راضياً كل الرضا عن عملي.

وقبل أن ينصرف قدم لي عرضاً

_ لديّ عدد كبير من الأحذية المستعملة بعضها يحتاج إلى إصلاح وبعضها، الآخر إدامة وتلميع فقط لمَ لا تأخذها وتصلح ما يمكن إصلاحه و تبيعها.

_ بكم تريدها؟

_ لن نختلف على السعر، تعال إليّ لتعاينها وبعدها نتفق على السعر.

_ ولم لا.

_ زرني في المنزل، سأكون موجوداً غداً عند الساعة التاسعة مساءاً

_ أووه... وقت متأخر.

_ متأخر!

_ يا أخي أنا رجل أكد على لقمة العيش، أنام بعد الغروب مباشرة.

_ خالف عادتك هذه المرة من أجل المنفعة.

_ نلتقي غداً عند التاسعة.

شرح لي العنوان وانصرف.

حرت في أمر هذا الرجل الذي لم يتخلّ عن الحذاء الإيطالي، واستخدمني لتصغيره ، ولن يختلف معي على سعر مجموعة أحذية شبه جديدة ! ما كل هذا التناقض؟

لم يحمل لي ما تبقى من نهاري أي جديد وكذلك فعل اليوم التالي وعندما غابت الشمس، كنت أُجرجر ساقيّ عائداً من جولتي المسائية في السوق، دخلت الدكان وجمعت الأحذية المتوجب علي إصلاحها هذه الليلة ... كان مساءً بارداً، مشيت عبر الشارع العتيق المكتسي كسمائه بحلة رمادية أحمل على كتفي كيساً مملوءاً بأحذية الفقراء ، كان على حرفيّ مثلي أن يصلحها كيلا يسيروا حفاة في زمن صار فيه رغيف الخبز أقصى ما يمكن أن يحلموا به .

وصلت إلى بيتنا، وألقيت حملي عند أقرب زاوية، ثم تعشيت على عجلٍ، و خرجت قاصداً بيت جدتي حيث صحبت خالي الأصغر أحمد إلى المهمة المريبة التي كنت أعتزم القيام بها...

الخال أحمد يكبرني بعام. لحسن حظي أنه يملك دراجة هوائية ركبت خلفه وقصدنا حي الثورة. إلى القصر المعروف المرتفع ثلاث درجات عن مستوى البيوت من حوله.

كان الظلام يسربل المكان حين وصلنا. الكهرباء مقطوعة وهو شيء اعتاد العراقيون عليه بعد حرب الخليج، طرقت الباب بقوة فخرج الرجل عديم الملامح خلال ثوان كأنه كان يترصدني خلف الباب.

دخلت البيت مع الرجل ذاته، تأخر أحمد عني بضع دقائق فقد عبر الشارع إلى دكان قريب لشراء علبة تبغ.

اجتزت البوابة إلى المرآب الذي يشق حديقة واسعة مظلمة إلى نصفين مؤدياً إلى مدخل سرداب يطل على الحديقة، كانت نوافذ السرداب تشي بالضياء والرفاهية ، ابتعد رجل الحذاء الإيطالي ، وقال لي:

_ خذ راحتك عندي عمل أقوم به.

هبطت الدرجات بخفة، كان السرداب مرتباً جداً يسبح في ضوء مصباح غازي، أرائك فاخرة مدفئة نفطية، وطاولة صفت عليها أطعمة ومقبلات ، و دلو صغير فيه ثلج و قوارير زجاجية بأعناق طويلة.

_ سرداب كهذا لا تخزن فيه أحذية قديمة. هكذا قلت في نفسي.

ثم تناهى الى مسمعي صوت ضحكة صفراء... ضحكة أعرفها حق المعرفة .

التفتُ لأجده خلفي يضحك كما كان يفعل منذ سنوات تفوح من أنفاسه رائحة الخمر ، دسست يدي في جيبي لأستل سكيني...

فضحك من جديد وتناول من تحت سترته الجلدية الفاخرة مسدساً، شهره في وجهي وفتح الأمان وهو يقول :

_ ها ابن العوصة اليوم يومي، سأسحقك تحت قدميّ. لن أفقأ لك عيناً واحدة، بل اثنتين. وانهار ضاحكاً بشكل هستيري. حتى اختل توازنه وترنح، فاستند إلى الطاولة.

كان وجيب قلبي يكاد يصم أذنيّ، بينما يدور عقلي بكل ما أوتي من قوة، كيف سأخرج من هذا الفخ ؟ فكرت للحظة في أن أنقض عليه وأسلبه مسدسه ، ترددت فالسُكر قد منحه اندفاعاً كبيراً يضاف إلى حقده القديم . حركت سكيني يميناً ويساراً وكأني أهم بطعنه ؛ لأكسب الوقت لعلمي أن جباناً مثله لن يضغط على الزناد ، لكن الخمرة التي كانت تسيطر على عقله قد تدفعه إلى التهور. أظن أنه استعان على لحظة انتقامه هذه بالكثير منها، ففي صحوه لم يكن يملك الشجاعة ليواجهني.

وفجأة ظهر أحمد من باب السرداب(كنت قد نسيت أمره) وكعادته يثير أحمد الكثير من الجلبة أينما حل. التفت باسل نحو مصدر الضوضاء ، استدار بكل جسده نحو الباب حين دخل أحمد كالأبله . وبسرعة البرق حملت قارورة من قوارير خمرته وهويت بها على رأسه، خرّ ساقطاً على وجهه وأفلت مسدسه، فالتقطت المسدس، ودسسته في حزامي خشية أن يلتقطه من جديد ! وحين رأيته غائباً عن الوعي ، لذت بالفرار، وبعد أقل من دقيقة كنت خارج البيت أعدو في الشوارع والطرقات .

لم أرَ أحمد حين غادرت السرداب، يبدو أنه أطلق ساقيه للريح بعدما ضربت باسل بالزجاجة .

ركضت بين الشوارع و في الدروب، لا أدري كم مضى من الوقت حين وجدت نفسي أقف لاهثاً في شارع باب سنجار، كان الظلام يخيم ٠ على كل الموجودات عدا تلك السيارة المتهالكة التي ينكب على محركها رجلان وشاب يبدو أنهم يحاولون إصلاحها على وهج مصباح يدوي يحمله أحدهم. اختبأت خلف كومة قمامة، بينما الرجال الثلاثة منهمكون في إصلاح السيارة، أعدت المسدس إلى وضع الأمان، وفي هدوء تام دسست نفسي في مؤخرة الشاحنة بين أكياس الدقيق والسكر وصفائح السمن ورائحة الروث وغطيت نفسي بشادر مترب كان مرمياً في قعر الشاحنة، اهتزت السيارة بعد دقائق وزمجر محركها معلناً بداية الرحلة، لا أدري إلى أين ستكون وجهتي وفي أي أرض سأصبح.

وحشي

_ ترى ما الذي جعلك تتأخر كل هذا الوقت، يا عصمان؟

هذا ما كان يشغل بال العم وحشي الواقف هناك عند حافة الربوة القصية ، البعيدة عن أقرب حاضرة بما لا يقل عن خمسة كيلومترات، كانت الشمس تلملم أشعتها مؤذنة بأفول وشيك بينما تسلل شعاعان بلون النحاس من بين أصابعها ليسقطا كنيزكين عند باب الغرفة حيث يقف وحشي وسفينة هواجسه تبحر بين أمواج الفكر المتلاطمة...

_ ترى أين أنت الآن، يا عصمان ؟ تساءل وحشي في نفسه

ثم طافت على سطح ذاكرة الرجل العجوز ذكريات ذلك الغروب الذي مَرّ في انتظار عودة أصلان ولده الأصغر، ذاك الانتظار المر الذي لم ينقضِ حتى تلك اللحظة، نسي الكهل أمر عصمان في خضم أوجاع ذكريات اختفاء الفتى الذي ابتلعته الفلاة فلم يعثروا له على أثر.

تمكنت العبرات من قلب العجوز المتعب فسالت على خده المتغضن دمعة كفكفها بطرف كوفيته، ونهض يحمل بندقيته على كتفه ويتمتم:

_ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً.

وحين أرخى المغيب سدول عباءته القرمزية على الأفق، وأطفأ جذوة كل الأشعة الهاربة من بين أصابع الشمس، تسلل اليأس إلى قلب العجوز المسكين، فجلس قرب صخرة يُعِدُّ لفافة تبغ بينما يدندن بأبيات عتابة حزينة :

نشدت الدار ما جوها مراسيل

ويدمع العين عالراحوا مراسيل

أطلبت الساعي الجايب مراسيل
دور ما لكَى منكم جواب ...
ثم أشعل طرف اللفافة ودسها بين شفتيه وجلس واجماً يمج نفساً من دخانها ، ثم يطلقه ليضيع في ظلمات البيداء التي تلفه من كل جانب يدور حوله كلب أسود لا يميزه من سواد الليل سوى عينيه البنيتين .

سيارة غريبة

في مكان آخر، كان الناطور الليلي يقوم بجولته المعتادة في منطقة باب سنجار:
_ من هذا الغبي الذي ركن سيارته هنا؟ تساءل الناطور.
تطلع إلى مؤخرة الشاحنة فاستقبلته رائحة روث الأغنام، فابتعد عنها متأففاً في نزق.
نظر في المقصورة الأمامية، فوجد شاباً يغط في نوم عميق... يلتحف بعباءة صوفية، طرق النافذة ولا إجابة، طرقها بقوة أكبر، ولا أثر لأي رد فعل من الشاب النائم، أضاء الناطور المصباح اليدوي داخل قمرة السيارة، ففزع الشاب وكأنّ ثعباناً لدغه. نهض الشاب من مكانه وراح يرغي ويدمدم بمقاطع وحروف و لكن لا كلمات :
_ ابا... ابا... ابا ..... عنعن ... دا
داخ الناطور، واحتار في أمره ماذا يفعل و ماذا يقول ؟ فكر للحظة أن الشاب ليس إلا عفريتاً من الجن ، وهنا ظهر ناطور الشارع المجاور ، كان يتقدم مسرعاً نحو الشيفروليه والابتسامة على وجهه .

_ على رسلك يا عصمان ... قال الناطور الثاني بينما يشير إلى الفتى الأبكم بيديه بحركات يدعوه بها إلى الهدوء.

وصل الناطور الثاني إلى حيث يقف الشاب

الأبكم والناطور الأول ، راح الناطور الثاني يتحاور مع الشاب بلغة الإشارات، فأشار إليه الشاب أن خطباً ما حدث للسيارة فتوقفت فجأة.

بعد برهة من التشاور الذي سادته أصوات أبا ...

أدا ... و آه... ، استدرار الناطور الثاني إلى زميلة .

_ إنه عصمان ابن العم وحشي ، أصم أبكم يأتي كل شهر إلى هنا ليتبضع ويعود إلى مضارب أهله في عمق جزيرة البادية قبل حلول الظلام ، كل رواد سوق باب سنجار يعرفونه ويعرفون قصته بالكامل.

يبدو أن السيارة تعطلت هذه المرة ، ولم يستطع العودة إلى دياره .

تطوع الناطور الأول بالنظر إلى محرك السيارة فانكب الرجلان والشاب الأبكم عليها يحاولون اكتشاف العطب وإصلاحه ليتمكن الأبكم من العودة الى بيته .

في هذه الأثناء... حدثت قرقعة عند أكوام القمامة على بعد خطوات من موقع الرجال الثلاثة والسيارة.

_ لا بد أنه كلب سائب. قال أحدهما.

وعاد إلى عمله وبعد قرابة نصف الساعة كان المحرك يدور وعصمان الوحشي يجلس خلف عجلة القيادة يقود البيك أب مغادراً الموصل من بابها الغربي نحو البادية .

عزبة الوحشي

حين أرخى الظلام سدوله على الهيماء و ملأت النجوم الآفاق كشظايا بلور تناثرت على عباءة سوداء كان العجوز وحشي لايزال متربعاً عند الصخرة ذاتها على الطرف الغربي للربوة القصية في عمق الفلاة إلى يمينه كيس تبغه وإلى شماله ربض كلبه العجوز دامس ... وقد غيبت ظلمة الليل سوادَه عن الأنظار.

مرت ساعات الليل ثقيلة ومريرة على الكهل المسكين وحين انتصف الليل حمل العجوز بندقيته ، ونهض راجعاً إلى البيت وكلبه يتبعه ، دخل الربعة الطينية وعلق التفنگة (التفنگة سلاح روسي اسمه فن توفگة معناه الموت الأسود يسمي في غرب العراق تفنكة) في مكانها على الجدار، وتوجه إلى مجلسه المعتاد أمام الباب . أسند الكهل الحزين ظهره إلى الجدار بينما عيناه تمسحان عتمة الصحراء من بعيد بحثاً عن بصيص ضوء قد يأتيه بعصمان ...

وأخيراً وبعد ساعات من الترقب والانتظار نال سلطان الكرى من أجفان العجوز ... فسرقته إغفاءة .

إنها العرّافة الدميمة ما الذي جاء بها في الليل البهيم ؟!

_ اسمه اسم نبي وملك ... في جنبه وعْل ... لا طاقة له بجالوت .

تقول العرّافة ، و وحشي ينصت

ثم فجأة كسر سكون الليل صوت صافرة قطار الليل تحمله الريح من بعيد .

أجفل العجوز من إغفاءته كان مجرد حلم

إنها الرابعة فجراً، تنهد العجوز في حرقة البائس المكروب وأنشد أبياتاً من شعر:

يا ريل يا الكَوطرت مر دارهم يا ريل
وببعاد دار الولف تعبان باد الحيل
سلم يا ريل بفرح مرهم توالي الليل
وردهم يصلني مع ريح التهب ليه
يا عين موليتين يا عين مولية
.....

استسلم العجوز أخيراً لدموعه، ها قد راح عصمان كما راح أخوه أصلان من قبل ...

وقبل أن يجفف وابل دموعه . أصغى الكهل إلى نباح الكلب دامس . الذي راح يتعالى ويشتد حدة. كان الكلب ينبح جراء ضوء سيارة وفدت من بعيد يشق صرير عجلاتها سكون الليل، أقبلت السيارة، إنه عصمان بابتسامته الشبيهة بضحكة طفل يرى أمه بعد غياب .

أصلان

كان ياما كان في ذات زمان ومكان... أصلان الفتى البدوي الجميل بعينين خضراوين وغدائر شعره الشقراء تتدلى على كتفيه، بثوبه الأزرق كزرقة السماء يركض ومعه كلب شديد السواد يسرعان ليلحقا بعصمان وقطيع أغنامه :

_ لا جدوى من النباح يا دامس فعصمان لا يسمع

يبتعد الأخ الأصم الأبكم بغنمه، فيقرر أصلان التنزه بمفرده مع كلبه دامس تحت شمس آذار الخجول التي تتوارى خلف الغمام تارة، وتعود للسطوع تارة أخرى وكأنها تلاعب الصغير لعبة "الختيلان". كان دامس يركض ويلعب ويقفز بين الفيافي وحقول القمح الخضراء يتبعه الصبي أصلان، ومرت الساعات وعند الرواح وصل أصلان مدخل كهف معتم فحمل حجارة وقذفها داخل الكهف، فسمع صوتاً يأتي من باطن الكهف يقول و كأنه يتوجع :

_ آي.

تبع دامس فضوله ودخل إلى الكهف؛ ليستطلع مصدر الصوت، نبح الكلب بشدة محاولاً ثني الصغير عن دخول الكهف ولكن لا فائدة دخل الصبي إلى الكهف ولم يخرج بعدها، وحلَّ المساء ومالت الشمس إلى الزوال، وعاد عصمان بغنمه و لم يعد أخوه إلى الدار.

وقبل أن تأوي الشمس إلى فراشها الوثير خلف الجبال البعيدة عاد الكلب دامس إلى المضارب وحيداً ينبح بحرقة ، فحمل الأب المسكين بندقيته وراح يجوب الصحراء بالطول والعرض ينادي :

_ ولدي أصلان ... أين أنت يا بُني ؟

جاب واحات الملح وكهوف العفاريت، و وديان الذئاب، و ما من أثر للصبي .

وهنا خاطبت الشمس الليل متوسلة :

_ أرجوك أمهلني ساعةً واحدة ، ولا تسدل عباءتك السوداء على سماء البيداء ريثما يجد الأب المسكين ولده الضائع.

_ أيتها الشمس ما بك؟ إنني مثل القدر لا أُخطئ ولا أتأخر هيا ابعدي ضوءك عن سماء الصحراء... واتركي سوادي يخفى آثار الصغير عن العيون ، فما أنا إلا عبد مأمور.

أطاعت الشمس الليل، وجمعت شعيعاتها النحاسية الهاربة واختبأت وراء الجبل تراقب

الأب المسكين وولده الأبكم وكلبهما الأقرب في سواده إلى لون الكحل، يركضون هنا وهناك بحثاً عن الصبي الجميل. نجح الليل أخيراً في مدّ سواده على آفاق الصحراء، وحين اشتد بريق النجوم، تسلل اليأس إلى قلب الأب المسكين وعاد إلى داره ينشج ويبكي ولده الذي ابتلعته الهيماء .

ولما ادلهمّ الليل... نادى القمر على هزيز الريح :

_ هلم نجمع السحاب فلتكن ليلة ماطرة.

فاجتمعت الغيوم وجادت السماء بالبلل، غسلت السماء طرقات الصحراء ، أخفت الطبيعة آثار الصغير. فضاع أصلان وضاعت معه تتمة الحكاية.

ومرت السنون والحزن والحسرة يسكنان فؤاد الأب المسكين ، وبعد عقد ونيف اشتهرت في العرب عرّافة لها عينان ضيقتان كعيني ذئب تتدلى

من أرنبة أنفها حلية ذهبية مزينة بأجراس صغيرة تشبه حبات القمح ، تزين جيدها القلائد من كل الأنواع وألوان الأحجار وكل حجر يحمل سراً، وتختبئ خلفه ألف حكاية. كانت العجوز تقلب الحصى وتقرأ الطالع، وتفكّ طلاسم خطوط اليد. كانت تدور بين مضارب البدو و تنادي:

_ كل غائب سيعود

أجفل الكهل الحزين حين سمع نداءها ونادى عليها :

_ انظري إليّ ... أين ولدي أصلان ؟

فنثرت الغجرية العجوز أصدافها على رقعة حرير موشاة بخيوط ذهبية :

_ له اسم نبي، وملك يدور في الدروب والطرقات يحمل صندوقاً وفي حزامه وعل :ثم تصمت العجوز... وكأنها تصيخ السمع :

_ لكن جالوت يتربص بالفتى. تقول العرافة ، ثم تحمل حجراً وترميه وكأنها ترجم شيطاناً، و تقول :

_ لا طاقة له اليوم بجالوت، وتظل تعيد العبارة ذاتها... حتى ترتعد وتعود لمحادثة العجوز

_ الولد مقبل... قادم لا محالة... يحمل اسم نبي... يخبئ في حزامه وعلاً... الكلب يعرف كل الحكاية.

_ رويداً أيتها العرّافة؛ إني أسألك عن ولدي:

أصلان؟

فتنثر الأحجار من جديد

وتعيد تلاوة الطلاسم ذاتها:

له اسم نبي وملك في حزامه وعل وعلى كتفه حبل وصندوق...
لا طاقة له بجالوت .....
تنصرف العرّافة من دون أن تسأل الرجل أجرها..... بينما تردد...
_ وقتل داوود جالوت.
لتترك العجوز عالقاً بين أشراك اليأس تارة ، وتباشير الأمل بعودة الغائب تارة أخرى .

داؤود

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا مستلق في قعر مؤخرة الشاحنة المنهكة ، إنني في عرض الصحراء لا شيء حولي سوى
الظلام وسواد الليل والنجوم المتناثرة في السماء ، يصل إلى مسمعي بين الحين والحين عواء ذئاب، فأرتعد ثم أتذكر المسدس الذي لا يزال في حوزتي.
كنت أسأل نفسي:
_ ماذا ستفعل؟
_ لا أدري... يجيب عقلي.
وأخيراً سرقني الرقاد بينما يهدهدني اهتزاز السيارة في طرق الفلاة الوعرة، أفقت بعدها على صوت كلب ينبح مبتهجاً بعودة سيده، بقيت ساكناً في مؤخرة البيك أب بينما يصل إلى مسمعي صوت رجل عجوز يرحب بالشاب العائد بعد غياب... سكن الكلب بعدها... واختفى صوت العجوز وصمتت تمتمات الأخرس، كنت قد قررت أن أكمل ليلتي حيث أنا حتى طلوع الصباح ، لكنّ قَرّ الفجر أوجع

أوصالي فاضطررت للترجل من الشاحنة، و لا أدري كيف لمحني الكلب الهرم فهرع نحوي ينبح وما إن وصل إليّ حتى سكت نباحه، وراح يدور حولي ويتشمم حذائي وكأنه يعرفني .

_ من أنت؟

جاءني صوت ينطق بالشدة والصرامة بينما تلمس أداة معدنية باردة ظهر قميصي.

_ دخيل.

_ أمِنت...

أرني وجهك (إندار). قال العجوز.

التفت رافعاً ذراعي إلى أعلى في إشارة

استسلام.

نظرت إلى العجوز ذي الوجه الجميل ببشرته القمحية المسفوعة بتأثير شمس البادية، وعيناه الخضراوان تلمعان في شراسة كعيني فهد.

وجّه الأخرس ضوء السراج نحوي بينما فوهة بندقية أبيه لا تزال تشير إلى صدري، غابت تعابير الصرامة عن هيئة الكهل ولانت

ملامحه ما إن رآني، هرع الأخرس بعدها إلى تفتيشي فاستخرج المسدس من صدري، والسكين من جنبي ثم اقتاداني إلى غرفة طينية على مبعدة عدة خطوات حيث جلست و العجوز قبالتي منحياً بندقيته جانباً، بينما يقلب ابنه سكيني ومسدس غريمي وحين استل نصل السكين من غمده لمع مع ضياء شعلة الفانوس المتراقصة وسط بقايا حلكة الليل ، تناول العجوز السكين وراح يقلبها... ويتحسس الوعل

المنقوش عند قاعدة النصل وكأنه يحاول فك رموز مسمارية على لوح أثري.

لاح على وجه العجوز شيء من حدب وحنان جهلت سببه في حينه.

وبعد برهة صمت نطق العجوز بصوت مرتجف كمن يكتم عبرة :

_ ما اسم الملك؟

_ أي ملك؟

_ أنت.

_ أنا داؤود، ولست بملك، ولد فقير أكدّ من أجل لقمة عيش أضعها في فم أبي المسن وأمي المريضة ، ثم قصصت عليه القصة، وأنا أغالب دمعي.

_ الظلم مُر يا وليدي... لا تحزن فقد أمِنت .

وبعدها جاءت سيدة لا يظهر منها إلا عيناها بصينية تحوي خبزاً طازجاً ولبناً وسمناً وشاياً.

علمت فيما بعد أن الشاب اسمه عصمان ، وأنه لا يسمع ولا يتكلم متزوج وله طفلان صبيان وحشي الصغير و سعيد .

خرج عصمان لرعي قطيع غنمه وظل العجوز في البيت، يدخن التبغ ويستقبل الزوار.

أمضيت ذلك النهار جالساً أمام باب الغرفة الطينية المخصصة لاستقبال الزوار والوافدين، والتي تبعد حوالي مئة متر عن بيت مبني من الحجارة على طراز معماري حديث .

وبعد ثلاثة أيام أعطاني العجوز عباءة صوف وسمح لي بمرافقة عصمان في رعي الأغنام ... كنا نخرج بالقطيع مع خيط الفجر الأول حاملين معنا متاعاً من خبز وتمر وقربة ماء، لنعود قبل المغيب.

رحلات رعي الأغنام مع عصمان جعلته قريباً مني، وصار صديقاً لي، يزداد قربه من قلبي يوماً بعد يوم ، كان يفهم لغة الإشارة، و حين تستعصي عليه إشاراتي كنت أتمهل في الحديث ليقرأ حركة شفاهي، كان بيننا شبه على نحو غريب ، حتى كان من يرانا يُظَنُ أننا شقيقان .

تعلمت رعي الأغنام ، لم تكن المهمة عسيرة، فالتعامل مع الأغنام كان أيسر من التعامل مع البشر .

وبعد شهر سلّمني العم وحشي بندقية نوع

كلاشينكوف علقتها على كتفي، الذي افتقد إلى ثقل صندوق صباغة الأحذية الذي هجرته منذ غادرت دياري .

_ هذه البندقية لك ستحملها فجر الغد، وتخرج بالأغنام إلى المرعى بمفردك ، عصمان سيكون مشغولاً .

في ذلك الوقت كان آل وحشي قد أفرغوا لي دامة طينية صغيرة هي الأبعد عن المضيف، كانت خالية إلا من مرتبة و وسادة ولحاف، وإبريق من صفيح .

في تلك الليلة وبعد ما هجعت كل المخلوقات وغابت النجوم وأفل القمر، ولم يبقَ في الفضاء أي كائن يقظ سمعت همهمات رجال، ووقع أحذية، و دبيب أغنام تساق ، فززت من نومي ظناً مني أن الوقت تأخر وأن النوم قد سرقني ، وحين نظرت من الكوة كان

عصمان وأبوه يقودان الأغنام لا أدري إلى أين؟ عدت إلى فراشي من دون أن أرهق نفسي بمزيد من الأسئلة، ومع خيوط الضياء الأولى قدت نعجاتي وحملاني ورحت أجوب بها الفيافي والأراضي بحثاً عن الطعام، الغريب أن القطيع كان قد تقلص إلى أقل من ثلثه، ترى أين ذهبت بقية الماشية؟

وحين عدت بالقطيع إلى الربوة ساعة الرواح كان عصمان و وحشي هناك، والإرهاق بادٍ على وجهيهما، فجلست إلى جوارهما في صمت مطبق:

_ غداً ستكون أنت راعي البيت؟

_ وماذا يعني ذلك؟

_ ستبقى في الدار هنا، وسيأتي ولد من القرية ليسرح بالغنم نيابة عنك

ارتجف قلبي بين ضلوعي جزِعاً.

_ لماذا هل أخطأت في شيء؟ لقد عدت بها

سالمة ، إنها في الزريبة.

تبسم وحشي فتلاشى خط العبوس الكامن بين حاجبيه :

_ لا، يا بني، في الغد ستنوب عني، فأنا ذاهب إلى الموصل في عمل.

تنفست في ارتياح .

_ أمرك، يا عمي .

_ لا تقل عمي، بل قل أبي.

_ شرف لي.

وبعد العشاء كتبت اسم أبي، وعنوان محله في شارع الفاروق على قصاصة ورق مقوى صغيرة عثرت عليها بعد عناء كبير، وسلمتها إلى وحشي .

_ اسأل رواد السوق عن هذا الرجل، يا عمي، ولكن تلطف، كيلا تثير الشكوك في سؤالك .

_ لا توصِ حريصاً، يا بني.

استيقظت ساعة الفجر، لتجهيز المسافرين ووداعهم، ولفت انتباهي أنهم حملوا من الزريبة صندوقاً خشبياً يصدر قرقعة ارتطام زجاج بزجاج عند حمله وتحريكه حدست من الرائحة أنها خمور .

كان العم وحشي يشير إلى الطرد المريب باسم، حصة عمك موجهاً الكلام الى عصمان .

قلت في نفسي:

_ أي عم ذاك الذي يستورد خموره من البادية؟ .

كانت مهمة راعي البيت أسهل من مهمة راعي الغنم، فكل ماهو مطلوب مني، الترحيب بالوافدين والإصرار على استبقائهم من أجل "استكان جاي" أو وجبة طعام، ومن ثم وداعهم .

وقبل أن تغيب الشمس، أطلت الشيفروليه المتعبة تشق عباب الصحراء وتثير النقيع حولها حتى لا تكاد تُرى ، توقفت، و نزل العم وحشي ؛ لم أجرؤ على سؤاله عن نتائج بحثه عن طه الإسكافي ، ومضت الساعات وحين خيّم الليل على الفلاة، استأذنت لآوي إلى فراشي .

_ ابق، أيها الملك، عندي كلمات أسرّها لك قبل أن تنام. قال الشيخ وحشي .

_ تفضل، يا عماه.

_ لماذا لم تسألني عن الرجل الذي كلفتني بالسؤال عنه؟

_ خشيت أن تكون أخباره سيئة.

_ ومن هو طه هذا.

_ إنه أبي.

رفع العجوز حاحبيه وفغر فاه وراح يحوقل .

_ عظم الله أجرك يا بني، فقد مات أبوك في السجن بعد رحيلك بأسبوع. قال الشيخ .

صعقني الخبر.

_ أي سجن يا عم أخشى أن هناك خطأ ما، أبي رجل مسكين لا يؤذي نملة، أي سجن ذاك الذي سيودعونه فيه .

_ قيل لي إنه سُجِن مكان ولده. يبدو أن الرجل الكبير الذي ضربته يا بني ادّعى أنك سرقت منه سبائك ذهب ومال كثير ، والشرطة قبضت على أبيك لتدفعك إلى تسليم نفسك ، لكن المسكين لم يحتمل الضرب والمهانة فسلم الأمانة لصاحبها ورحل إلى رب كريم. أما خالك فقد حكم عليه بخمس سنوات سجن مع الأشغال. وأمك المسكينة الآن تعيش في بيت جدك.

غادرت من دون أن أنطق حرفاً، كنت أعدو في الصحراء على غير هدى، أبكي وأنتحب، ماذا فعلت لأجني هذا كله، وإن كنت مذنباً، فما

ذنب أبي ؟ هل تستحق عين ابن الحرام ذاك كل هذا العناء، أن أُنفى من دياري ويموت أبي في ذل ومهانة!

لا شيء أسهل من الظلم على هذه الأرض .

عدت بعد ساعات إلى غرفتي لأجد العم "وحشي" ينتظرني عند الباب .تنفس الصعداء حين لمحني قادماً من بعيد.

_ بنيّ داوود ليس من الحكمة أن تجوب الفلاة من غير سلاح في ليل حالك كليلك هذا، ماذا لو هاجمتك سباع الصحراء؟

_ ليتها تفعل ياعماه. قلت والعبرات تخنقني .

_ لا قدر الله عليك شراً، يا بني.

نمْ وفي الصباح عندي الكثير لأقوله لك. ولا تخرج بالغنم في الغد.

_ ليس إلى هذه الدرجة، يا عماه، فما أنا سوى عامل أجير. سأتدبر أمري، لا تقلق.

أمضيت ليلتي جالساً في فراشي، أفكر في أيام أبي الأخيرة ترى كيف مات ؟ هل تألم ؟ هل أهانوه ؟

وحين أصبح الصباح حملت بندقيتي والتحفت بمعطف الفرو المعروف بالحورانية في تلك الديار ، و خرجت ولما هممت بإخراج الغنم من زرائبها لاحت لي عينا العجوز، من تحت لثامه يتأزر بندقيته مُسربلاً بعباءة صوفية .

سأل بعطف تشي به نبرة صوته.

_ _ كيف أصبح الملك؟

_ لا يحمد على مكروه سواه.

أجبت بعينين دامعتين.

_ سآتي معك، فقد اشتقت إلى البرية.

_ .....

مشينا خلف الأغنام و دامس الكلب العجوز يدور حولنا وفي عينيه نظرة تشبه تلك التي تطل من ناظِري سيده .

"أشك أنك يا دامس مجرد كلب" .

وحين ارتفعت الشمس، وصار الوقت ضحى كنا قد وصلنا بالقطيع إلى غدير ماء . تراكضت الدواب لترد الماء، جلست والرجل الكهل نقتسم رغيفاً من خبز وبضع تمرات والكلب يربض غير بعيد عنا .

كان كل شي في يرغب في أن يصرخ في الفضاء، أردت ان أبكي ، أن أنتحب ، أن أهيل على نفسي من تراب البادية، أردت أن أهيم في أرض الله.

كانت نظرات العجوز إليّ تشع رأفة وشفقة. أضحى الصمت ملاذي في الأسابيع الأخيرة، و ازداد صمتي بعد ما بلغني من أخبار أهلي.

ظل العجوز يرافقني إلى المرعى ثلاثة أيام وفي الليلة الثالثة، وبعد العشاء، وحين هممت بالمغادرة إلى حيث أمضي ليلي ككل مرة طلب مني العجوز المكوث .

_ انتظر.

جلست من دون نقاش أو اعتراض.

_ بُني داؤود... ها هي أيام العزاء انقضت .

انفض عنك غبار الحزن يا ولدي ، فوالدك نفسه لن يسعده أن يراك منكسراً هكذا.

تملكني النشيج. ومنعتني شهقات عبراتي من النطق بأي جواب.

تركني العجوز أبكي حتى نضبت دموعي، ثم قال :

_ الضعف ليس ثوبك، يا ولدي. تمالك حزنك. وانظر إلى حالك. أريد أن أحدثك في أمر يهمك.

_ تفضل يا عم

_ قبل ستة عشر عاماً كان لي ولد، غير عصمان. كان وقتها في عامه الرابع، يشبهك في كل شيء ، عيونه خضراء، وشعره أشقر وقلبه شجاع، ابتلعته البادية ضاع، اختفى ولم نعثر له على أثر. انتظرت عودته كل هذه السنين. كل يوم مرّ عليّ في غياب أصلان كنت أمضيه في انتظاره، انتظر أن يخرج على بجدائله الشقراء ومحياه المحبوب. حتى أتيت أنت، أحسست أن السماء أرسلتك لتعوضني عن غيابه. أصلان لا يزال في نظر الحكومة وسجلات النفوس حي يرزق رجل في عمر العشرين.

الرجل الذي اتهمك بسرقة ماله وذهبه، لن يتركك وشأنك، اترك داؤود، ولتكن أصلان، ستولد من جديد بعيداً عن صاحبك الأعور وثأره الذي لن يشفى حتى ينفخ في الصور.

سأمنحك اسم ابني وهويته، على أن تقطع على نفسك عهداً.

_ عهد؟

_ أن تكون لعصمان سنداً وعضداً من بعدي.

أن تكون أخاه أصلان بكل ما تحمله الأخوة من عهود و ومواثيق .

طلبت من العجوز أن يمهلني بضعة أيام، ريثما أرتب أفكاري وأرد عليه.

وبعد ليلة من التفكير، طلع الصباح، فخرجت من صومعتي ككل يوم أحمل بندقيتي، وألتفع بالعباءة الفضفاضة. سرحت مع النعاج، وقبل أن ترتفع الشمس كان صوت محرك الشيفروليه يشق هدوء الصباح، لتقف أمامي يقودها عصمان و أبوه إلى جواره، ترجل العجوز

_ تعجلت الخروج، يا داوود، لو أنك تريثت لكنت رافقتك.

قال بينما يلتفت إلى عصمان مشيراً إليه أن ينصرف.

تسلحت بالصمت، وأنا أراقب عصمان يعود أدراجه بمهرته المتعبة. وحين غابت العربة عن الأنظار التفت إلى الكهل الواقف إلى جواري ينتظر مني إشارة.

_ أصلان، نادني أصلان .

وبعد أيام ذهبنا إلى قصبة قريبة، وهناك التقطت بعض الصور الرسمية، صوراً بالأبيض والأسود. كانت لحيتي قد نمت ولوحت الشمس بشرتي، ولم يبق فيّ من داؤود سوى نبرة صوتي التي لن تظهر في الصورة، انتظرنا في مقهى قريب ريثما تجهز الصور، وبعد ساعة انتظار أعطاني المصور مغلفاً ورقياً صغيراً، فضضته لأرى صوري التي لا تشبهني البتة.

وبعد أيام قليلة وضع العجوز في يدي رزمة من أوراق، هوية أحوال مدنية، شهادة جنسية عراقية، دفتر خدمة عسكرية.

دفعني فضولي إلى تصفح دفتر الخدمة العسكرية. فعرفت أن العجوز قد تكفل بدفع مبلغ كبير من المال كان يسمى وقتها بدل الخدمة العسكرية. نظير إعفائي بشكل قانوني من التجنيد الإلزامي.

تهريب مواشٍ

هكذا يتحكم القدر بخيوط القصة ... فيومَ فُقِد أصلان ولد داؤود، واليوم كان على الليل أن يبعث أصلان ويغيب داؤود.

مرت الأيام على داؤود، أو أصلان بوتيرة أسرع بعد انقضاء حداده على أبيه، وتحوله إلى أصلان الوحشي بعد أن كان داوود القندرجي لستة عشر عاماً .

نهارات طويلة أمضاها داؤود يسوق نعجاته وحملانه ورنين أجراس المرياع يتردد صداه في آفاق البادية . من غدير إلى واحة عشب ومن ربوة إلى وادٍ، لم يفتقد منكبه الأيمن ثقل صندوق ماسح الأحذية فقد حلت البندقية محله... أما سكين الوعل فقد أعادها إليه وحشي بعد أيام قليلة من حصوله على هوية أصلان، وفي الجمعة الأولى من كل شهر كان كل من أصلان و عصمان يقودان قطيعاً من الأغنام ليقطعا به البيداء نحو الساتر الحدودي الفاصل بين الأراضي العراقية ، والأراضي السورية، وعلى الساتر يتسلم أصلان طرداً ثميناً يتكفل عصمان فيما بعد بإيصاله إلى العم في الموصل. كان تهريب المواشي هو عمل الشيخ وحشي الحقيقي، أما الرعي فما هو إلا واجهة. كان الناس يسمون وحشي ملك البادية. وحشي ذاك الفهد العبوس بعينيه المتيقظتين يحكم الهيماء بناسها وضواريها.

كانت عملية التهريب في مأمن تماماً، طالما يؤدي آل وحشي فروض الطاعة للرجل الكبير المتربع على عرشه الوثير في المدينة . وعلى الرغم من أن العملية مضمونة تماماً، غير أنها لا تخلو من خطورة،

فالحنث و الخيانة واردان في كل عهد ميثاق. كان الشابان يخرجان بقطيعهما هلال كل شهر مدججين بالسلاح تحسباً لخيانة محتملة. وحين تعبر الأغنام الساتر إلى الضفة المقابلة من الحدود يتسلم الولدان المال والطرد الشهري الخاص بالرجل الكبير، الذي هو عبارة عن علبة من السيجار الكوبي الفاخر، أو صندوق من بضع زجاجات من خمور نوع جين أو ويسكي ، وفي الصباح التالي لكل عملية تهريب يحمل عصمان الهدية ليسلمها لأحد رجال سيده في سوق باب سنجار.

كانت الإتاوة المقدمة للعم وقتها تكلف الكثير ولكن لا مناص منها، فرِضا العم يعني عودة الولدين سالمين إلى أبيهما بعد كل خطرة .

لم يكن أي من آل وحشي " ملوك الصحراء" يعرف شيئاً عن هوية سيدهم الذي يتلقى هداياهم بعد كل خطوة يخطون عبر الصحراء ، وخلال الساتر .

أصلان

ازداد قربي من عصمان، وتوثقت أواصر الأخوة بيننا . تقاسمنا رغيف الخبز وحفنة القسب ، وقربة الماء وصددنا هجمات الضباع وبنات آوى ، وركضنا إلى أقرب جدار نحتمي به حين داهمتنا المُزن. وعبرنا السواتر تحت زخات الرصاص ... تعلمت منه ألا أخشى الموت ، وأن الشجعان يموتون مرة واحدة .

أما ولداه وحشي وسعيد ... فقد اعتادا وجود العم الجديد العائد من اغترابه الطويل في الحسكة السورية .

يوماً بعد يوم زاد حبي للصحراء وأهلها، وأوشكت على نسيان داؤود ماسح الأحذية، لولا طيفان كانا يعذبانني ويحركان في وجداني كل الذكريات، طيف أمي المسكينة ، التي خسرت كل شيء، وطيف تلك الفتاة صاحبة الوجه الذي يشبه البدر، جميلة العينين زينب ، التي لا تدري حتى بوجودي .

بعد أشهر من عمليات التهريب المتوالية اكتسبت بعض الخبرات، وصرت أعرف مفاتيح الحرفة، فبدلاً من جلب صندوق واحد من الويسكي ، وعلبة سيجار واحدة، صرت أوصي شركائي في الجانب السوري بتزويدي بالمزيد ... فأرسل حصة الرجل الكبير وأتدبر بيع ما تبقى إلى الأثرياء والموسرين . وعن طريق إغداق الهدايا والعطايا على ضباط المخافر الحدودية، ازداد نفوذي على طول الشريط الحدودي العراقي السوري ، وأجزاء من الحدود بين العراق والأردن فصارت قوافلي تمرق من السواتر والروابي كما يمرق البرق من بين الغيوم .

كابوس باسل

اختفى ذلك الملعون كما تختفي إبرة في كومة قش .

فتحت عيني بعد حوالي الساعة لأجد نفسي مسجياً على أرضية السرداب وسط الظلام بعد أن نفدت قارورة الغاز الخاصة بالمصباح، نهضت، كنت أترنح من تأثير الويسكي وضربة ماسح الأحذية، ورأسي يكاد ينفجر من الصداع ، خلال دقائق قليلة اتصلت هاتفياً بأحد أصدقائي الذي أقلني فيما بعد إلى المستشفى حيث عالجوني و

ضمدوا رأسي، احتاج الجرح الذي سببه لي ابن العوصة إلى ثلاثة قطب جراحية وتقرير طبي عدلي أولي.

تقدمت بعدها بشكوى ضد المدعو داؤود طه القندرحي، قلت فيه: إنه اقتحم بيتي وسرق مني سبيكتين من الذهب، وعشرة آلاف دولار ، ومسدس (٩) طارق بعد أن اعتدى عليّ بالضرب . شهد شهود عيان أنهم رؤوا المُدعى عليه يستقل دراجة هوائية خلف خاله، فتم إلقاء القبض على الخال الرعديد الذي اعترف زوراً مع أول صفعة أن داؤود سرق الذهب والمال والمسدس وهرب.

وبعد أيام من البحث وتقصي أثر ماسح الأحذية ارتأت السلطات أن تقبض على والده الكهل كوسيلة للضغط عليه ليسلم نفسه. العجوز المتعب مات بعد أيام في الحبس. يبدو أن المسكين لم يكن من رجال السجن .

مرت شهور وأنا أترصد ظهور داؤود ، و رجالي في كل أنحاء المدينة يراقبون ظهوره في أية لحظة بعيون متيقظة ولكن من دون جدوى.

أنستني الأيام والشهور أمر داؤود، أغلقت صفحته كأنه مات، لكنه، وبعد سنين من اختفائه عاد ليسكن كوابيسي. إذ كان يتناوب على إفزاعي مع رزاق القصاب، فليلة يأتي رزاق إليّ غاضباً يبصق في وجهي بينما يزمجر ويقول :

_ عار.

وفي الليلة التي تليها، يأتي من بعيد رجل ملثم على ظهر حصان، يقترب الحصان حتى تكاد حدوات قائمتيه الأماميتين تركلان صدري، ثم يتوقف الحصان ويترجل الفارس، ويميط اللثام عن وجهه، رجل

بلحية شقراء وشعر طويل مجدول في ضفيرة، وأنا أرتعد أمامه كفأر خائف ، يستل الغريب من جنبه سكيناً ويطعنني ثلاث طعنات، اثنتان في أضلاعي وواحدة في قلبي، فأصرخ:

_ لا، يا ابن العُوصة.

وهكذا تتعاقب كوابيسي بين أبي الغاضب والشاب الملثم، تهجرني أسبوعاً لتداوم على زيارتي لأسابيع حتى كرهت الليل والرقاد وصرت أعاقر الخمر والسهاد.

أيوب _ ١٩٩٩

مر يومان على استلام مريم قرار فصلها من العمل، اليوم هو السبت ذهبت إلى المستشفى حيث كنت أعمل قبل أن تغضب مني السيدة ظل الله على أرض الله ، واستلمت كتاب انفكاك، موجه إلى دائرة الصحة ، ومن هناك أعطوني الورقة التي سأباشر بمقتضاها عملي الجديد في بقعة ما غربي البلاد إلى الجنوب من جبل سنجار، غربي مدينة الحضر و إلى الشرق من مدينة الحسكة السورية.

إنها " بَعّاج " .

يقال إن هذه البقعة كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري، وفيما بعد صارت ملتقى البدو الرحل الوافدين من الصحراء الغربية الذين كانوا يجتمعون فيها لوفرة مائها وخضرتها.

لم أكن متحمساً إلى تلك الرحلة التي ستأخذني إلى المجهول، وفي المساء توجهت إلى أمجد كنت أعلم جيداً أين أجده ، كان يعمل حمالاً

في سوق التبن ذهبت إلى هناك فلم أجده فحملتني ساقاي إلى بيته في العوجة الضيقة ذاتها التي تربينا فيها سوياً، ومن هناك أخذته إلى أقرب مقهى مروراً ببيتنا القديم بيت شجرة الليمون، وقفت هناك لبرهة قصيرة، لعلَّ أطياف الأحبة تتراءى لي.

كان الهم يستبد بأمجد ويملك مشاعره .

_ لست على ما يرام. ماذا هناك ؟ أمجد تكلم.

_ لا شيء جديد يا صديقي، إنه فقط حبس أحمد وضياع داؤود. ها قد دُمرت حياة عائلة بأكملها في سبيل سبائك ودولارات ذلك الملعون . لا أدري علام أحزن ؟ على أختي المسكينة التي فقدت زوجها وابنها الذي لا ندري إن كان في حياً، أم ميتاً؟ أم أحزن على أحمد الذي سيمضي زهرة عمره بين المجرمين والشواذ . هل كان باسل القصاب سيفعل الشيء ذاته لو كان اللص ابن مسؤول كبير ؟

_ داؤود... لص ...! عجيب أمرك، يا أمجد !

_ لا أدري ما الذي دهاه؟ المصيبة أن المسروقات تقصم الظهر سبائك ذهب، وعشرة آلاف دولار ومسدس .

_ وهل صدّقت؟ أرجوك أمجد لا تكن ساذجاً.

الأمر واضح كالشمس إنها تهمة مدبرة، داؤود في أسوأ حالاته كان سيسرق قدراً من الطحين ، أو رزمة من خبز . هذا إن فعل. إنها تهمة كيدية.

_ وعلام يكيدون لداؤود، يا أخي يا أيوب، ربما يطمعون في صندوق تلميع الأحذية! كن منطقياً يا صديقي الفيلسوف.

_ لا أدري قد لا أكون على صواب ، لكن عقلي عاجز عن التصديق

_ لا علينا، داؤود الآن في عداد الأموات، انتهى أمره و صار نسياً منسياً . متى ستسافر؟

تنهدتُ فخرجت الآه من جوفي وكأنها تريد أن تحرق كل ما يصادفها:

_ غداً بإذن الله.

_ إسمع أيوب ، لماذا لا تذهب مع سيارات الحِمل يوصلونك إلى قلب الفلاة، فلا تحتاج إلى مواصلات أخرى لإكمال مسيرك ، ما رأيك؟

_ لم لا.

_ هيا معي ، عندي صديق سيخرج إلى جزيرة البادية قبل الفجر، لنذهب ونتفق معه.

وافق الرجل على اصطحابي من دون تفكير.

وقبل أن أُودّع صديقي قلت له :

_ أوصيت مريم إن احتاجت إلى أي شيء في غيابي أن تلجأ إليك، وهنا فاضت الدموع من عينيّ.

عانقني صديق الطفولة بينما يربت على كتفي، ودعته والغصة لا تزال في صدري . كنت أفتقد أبي ذاك الأسد الهمام الرجل الشجاع الذي لديه لكل معضلة حل، وجدتي تلك السيدة الشديدة العصية على تقلبات الدهر وغدر الزمان، مشيت حتى خرجت من متاهة "الدرابين" إلى الشارع الفسيح ، وهناك أشرت إلى أقرب سيارة أجرة، وعدت إلى البيت حيث أمضيت ما تبقى من ساعات الليل أتجرع الشاي، وأمج سجائري، بينما كانت مريم تتظاهر أنها نائمة .

مضى الليل على هذه الحالة، وقبل الموعد بساعة نهضت مريم من فراشها :

_ سأُعد لك الإفطار.

وعلى طاولة الإفطار، كانت تتحاشى النظر في عيني، من جديد غلف الصمت مجلسنا .

_ هناك ثياب وغيارات والكتب التي طلبتها ودفاتر فارغة وسكائر وأربع قدّاحات، وبعض "الكليجة"* قد تنفعك في حال لم يعجبك الأكل هناك.

ابتسمت ولم أرد جواباً .

وحين حان موعد الرحيل حملت حقيبتي وخرجت من دون الالتفات إلى أي شيء كانت دموعي تنتظر من أجفاني رفةً لتنهمر دونما توقف... وحين ابتعدت التفت ورائي ، كانت مريم لا تزال واقفة في مكانها ترقبني لوّحت لها من بعيد، ثم واصلت مسيري نحو نقطة لقائي بالشاحنة المحملة بالأعلاف .

كان الضباب يكتنف الطريق، حيث وقفت أنتظر، وبعد دقائق طويلة من الانتظار، تناهى من بعيد هدير محرك سيارة تشق بأضوائها الضباب، توقفت الشاحنة، فقفز من فوق الحمولة رجل بكوفية حمراء يلفها حول رأسه ووجهه فلا تظهر منه إلا عينان عسليتان أعرفهما كما أعرف راحة كفي، هبط الشبح منادياً :

_ أيوب .

إنه أمجد صديق الطفولة سيرافقني هذه المرة أيضاً .

وثبت إلى قمرة الشاحنة يتبعني صديقي وما إن استوينا في مقاعدنا ، حتى سألت أمجد:

_ ما الذي جاء بك؟

_ هل حسبت أنني كنت سأتركك تذهب من دوني .
ابتسمت لصديقي و دموعي لم تزل معلقة بين أهدابي ، وقبل أن نغادر حدود بلدية الموصل نال الكرى مني لا أدري كم مضى من الوقت، و حين فتحت عينيّ كنا نقف أمام منارة أثرية يبلغ ارتفاعها حوالي اثني عشر متراً، علمت على الفور أنها منارة سنجار الأثرية ، والتي شيدت في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي شيدها محمد عماد الدين زنكي الأتابكي ، وهي إحدى أربع منائر أتابكية شُيدت على أرض العراق في عهد حكم الأتابكية : المئذنة الحدباء في الجامع النوري في الموصل، والمئذنة المظفرية في أربيل ، ومئذنة داقوق ، ومئذنة سنجار.
سرعان ما دار محرك السيارة التي تقلنا مع أكياس التمر لنكمل الرحلة إلى بَعّاج... لا شيء يلفت الانتباه في الطريق سوى أرض سهلة منبسطة، وربيع وليد يوشك أن ينبثق من جوف الأرض .
وأخيراً وصلت إلى المركز الصحي في قضاء بعّاج. كان يشبه بيتاً من ثلاث غرف متجاورة، وفناء كبير ، أما الكادر فلم يكن سوى ممرض ماهر وحارس ليلي. وها قد وصل الطبيب .
كانت أيامي، الأولى في البادية صعبة . فقد خضتها وحيداً أفتقد كفَّ أمي الحاني الذي اعتاد أن يأخذ بيدي ، و جدتي التي كانت ترقُبُ عودتي كل يوم ، وسترة أبي الشتوية الفضفاضة أُداري بها ارتعادي وألتمس منها الدفء ، بعيداً عن نصفي الثاني حبيبتي مريم و حبة قلبي فاطمة، كان إحساسي بالوحشة والغربة يزيد غربتي وجعاً وضيقاً
غرفتان و فناء موحل شاسع ، كان هذا مقر عملي ، يتوافد المرضى حتى ما بعد الظهر ، ثم أغلق باب غرفة الطبيب متوجهاً إلى غرفة

طينية تقع في الفناء الخلفي للمبنى ذاته، عليّ أن أطهو طعامي وأعدّ لنفسي الشاي ، أمور لم أتقنها طيلة حياتي.

لم يكن هناك أية استراحة فالمرضى يتوافدون إلى غرفة الطبيب في الصباح، وحتى بعد الظهر وبعد ذلك يأتون إلى غرفة الاستراحة، حيث من المفترض أنني أنام ، آكل ، أو أستريح...لم أتذمر في بادئ الأمر ، فكنت أختلق لهم الأعذار مثل مرضى مساكين... أناس فقراء، وغيرها ، ولكن وبعد انقضاء أسابيع لم أنعم فيها بشيء من الراحة، بدأت ردود أفعالي تزداد حدة، وصرت أنبه حارس المركز الصحي أن يغلق الباب الخارجي بعد انتهاء ساعات الدوام. أطاعني الحارس في ذلك، ولكن على طريقته إذ كان يسمح لمن يخصه بقرابة أو يدس في جيبه إكرامية سخية بالتفضل إلى غرفة الطبيب في كل وقت.

الأمر لم يكن متعلقاً بالفرّاش وحده المسألة كانت ثقافة مجتمع بأكمله، مجتمع لا يؤمن بحدود خصوصية الآخر ، ولا يعرف أن الطبيب ليس ملاكاً يعيش على النور، بل إنساناً يحتاج إلى أن يأكل ويشرب وينام ويمارس حياةً طبيعية.

كانت الحالات التي ترد إلى المركز تتراوح بين أطفال يعانون من السعال أو الحمى ، أو رضّع يعانون من إسهال ، وجفاف ، ونساء حوامل يعانين من فرط الإقياء ، أو هبوط وعائي وفتيات مراهقات يحملن شكاوى لا تنضوي تحت أي تصنيف طبي، ومتمارضين... وحالات أخرى لا يسعني حصرها.

وفي فجر أحد أيامي في البادية طرق مسلحون باب غرفتي، كانوا يحملون مصاباً بعيار ناري، علمت بعد الكشف عليه أن روحه قد غادرته منذ دقائق قليلة، لم يقبل أهل المصاب أن يدون اسم ميتهم في سجلات المركز الصحي، جهلت السبب في ساعتها ، وفي الصباح أخبرني سرحان حارس المركز الصحي أنهم "قجغجية" (مهربين) ... كانوا يسوقون قطيع أغنام ليعبروا به الساتر الحدودي إلى الأراضي السورية، فاعترضت طريقهم مفرزة حرس الحدود وفتحت عليهم النار فلاذوا بالفرار ، وصودر القطيع بأكمله.

وبعد يومين من حادثة الشاب المتوفى بطلق ناري نافذ في الجمجمة، طرق باب غرفتي بعد مغيب الشمس عجوز مسكين قال إن معزته في حالة مخاض منذ الصباح ، ولم تتيسر ولادتها حاولت الاعتذار والتملص من مهمة قابلة الماعز تلك ، لكن العجوز المسكين استثار شفقتي حين قال:

_ أخشى، يا بني أن تنفق المعزة التي نقتات على لبنها أنا وعجوزي .

ارتديت سترتي حاملاً معي بعض القفازات المطاطية ليصحبني العجوز إلى دامة طينية متهالكة حيث تقبع الماعز المسكينة كانت قوائم الجدي الأمامية و نصف وجهه خارج جسد أمه ، أصابني ذهول عجيب لا أدري ما عليّ فعله فأنا لم أشهد يوماً ولادة بشرية ، وكل ما أعرفه عن الوضع والولادة لا يعدو كونه معلومات نظرية. خطر في ذهني أن أمسد بطن المعزة بقصد تحفيز الرحم على مزيد من التقلصات ، فعلت، وبعد نصف دقيقة زاد تقدم الصغير فانتشلته سيدة عجوز كانت تقف إلى جواري . برز بعدها من جسد أنثى الماعز

كيس بلون يميل إلى الصفرة يبدو أنه الكيس الامنيوسي... وازداد حجم الكيس حتى انفجر وتدفق ماؤه وانسل من جوف المعزة صغير آخر بسرعة لا تكاد تصدق وآخر ثم آخر... لتكون الحصيلة أربعة صغار ، اغتبط العجوزان بولادة صغار الماعز ونجاة المعزة الأم من الموت.

هكذا تولد الحياة بعد كل كبوة ، مخاض عسير ثم براعم جديدة تنبثق من تحت ركام الآهات.

عدت بعدها إلى حيث استريح كل يوم . نمت بعمق، لم يطرق بابي تلك الليلة ، فقد أغرقت مياه المطر الطريق إلى المستوصف، فلم يعد في وسع القرويين الوصول إليّ .

وككل يوم حملت نفسي في الصباح إلى غرفة الطبيب بانتظار كوب الشاي السنگين من يد سرحان الحارس احتسيه على أنغام فيروز المنبعثة من جهاز الراديو الصغير وأنفاس سيجارة كولدكوست.

كان عدد المراجعين قليلاً... عزا سرحان ذلك إلى أن الدروب تغوض في الوحل ومن العسير على الناس الوصول إلى المستوصف.

مرت أيام الشتاء وجاء الربيع فارتدت البرية أجمل أثوابها . كان ذلك الربيع هو الربيع الأول الذي شهدته البادية بعد أربع سنوات من المحل ...

الربيع في البادية لا يشبه الربيع في المدن والحواضر ... ففي الأرياف والبوادي الربيع هو الصيام بانتظار هلال العيد ... السنابل تمتلئ بالحبوب والنعاج تضع الحملان ... وتشبع الغنم والمواشي مما أنبتته الأرض ... ثم مهرجان جزّ أصواف الأغنام ، ومع أواخر الربيع تكتنز الحبوب في قلب السنابل مبشرةً بحصادٍ قريب وغلة وافرة .

صرت أعمل لأسبوع أو عشرة أيام متواصلة ثم أقفل إلى الموصل حيث عائلتي وبعد ثلاثة أشهر صار لي عيادة خاصة في قصبة قريبة من القرية حيث أعمل ، وكفل ذلك لي دخلاً جيداً ، لم تكن الثروة يوماً ضمن قائمة أولوياتي أو سجل أحلامي ... لكنني كنت سعيداً بالنجاحات الصغيرة التي جنيتها فترة مكوثي في البادية ... الجرحى المصابون بأعيرة نارية الذين تمكنت من انتشال أرواحهم من براثن الهلاك والذين اتفقوا على أنّ القضية مجرد عيار طائش ... لسعات العقارب ولدغات الثعابين ، محاولات الانتحار التي أحبطتها ... والمعزة التي ولدت أربعة صغار. والصداقات الكثيرة التي كسبتها ودعوات العجائز والكهول ...كلها كانت قصصاً صغيرة لنجاحات لن تدوّن يوماً في شهادات تقديرية، ولن أحصد بفضلها دروعاً ، ولا أوسمة استحقاق ولن أحظَى بسببها بتصفيق حار في قاعة عملاقة تحتضن مؤتمراً طبياً ولكنها أوصلتني الى أيوب الذي أريد أن أكونه . وأسهمت في تكرير شخصيتي واستخلاص عصارة صبري واكتشاف مواطن قوتي . كان المنفى بمنزلة مدرسة جديدة كان عليّ ارتيادها .

طلق ناري

كانت معرفتي بالشيخ وحشي وولده أصلان واحدة من أهم محطات حياتي .

ففي صباج لا يختلف عن غيره، في أواخر ربيع العام ٢٠٠١ .كنت عائداً من إجازتي التي أمضيها في الغالب منتصف كل شهر مع عائلتي في الموصل، ترجلت من السيارة فهرع إليّ الممرض:

_ دكتور هناك إصابتان بطلق ناري، اصنع معروفاً وأحلهما إلى الموصل لا نريد متاعب .

تريثت قبل النطق بأي جواب ريثما أعاين الحالتين ؛ دخلت غرفة الفحص فوجدت أحدهما في حالة حرجة ثيابه مخضبة بالدماء، كان شديد الشحوب وأنفاسه متقطعة وأطرافه متجلدة، وكان نبضه ضعيفاً ، وبعد الكشف اتضح أنّ ثلاث رصاصات قد اخترقت صدره، اثنتان في الأضلاع وثالثة في عظمة القص .

التفتت إلى الكهل المفجوع، وأخبرته أن الحالة متأخرة وأنني قد لا أستطيع أن أفعل شيئاً .

أطرق العجوز واجماً يسربله الحزن:

_ يعني انتهى الأمر، إذن ؟

_ للأسف يا عم، لا أظنه سيصمد لو أننا فكرنا في نقله إلى مستشفى في الموصل . ورغم هذا سأفعل ما في وسعي على أمل أن تستقر حالته قبل إحالته إلى أقرب مستشفى ، عسى أن تحدث معجزة و ينجو .

وبعد دقائق طويلة من الإسعافات غير المجدية والسوائل الوريدية فارقت روح الشاب جسده بهدوء .

التفتت بعدها الى أخيه، كان شاباً في العشرين أو أقل بقليل ... بشعر أشقر طويل إلى درجة يمكن معها أن يضفر، وبشرة لوحتها شمس الربيع وعينين خضراوين واسعتين، حين أزحت قميصه عن جذعه لأنظر في جرحه، قلت في نفسي

"هذا الشاب حديث العهد بشمس البادية "

وبعد الفحص قلت للشاب :

_ طلق ناري غير نافذ "بالريش" لا داعي إلى القلق ضماد ومتابعة ، وستعود أحسن مما كنت خلال أسبوعين وإذا كنتم قلقين عليه في وسعي إحالتكم إلى مستشفى في الموصل .

فقال الشاب :

_ لن أذهب إلى أي مكان. كان يتكلم بلكنة أعرفها جيداً ، إذ كان يمد الألف في كلماته مع ترقيقها . لا يمكنني أن أُخطئ لكنة الموصلي ، حتى لو جاءني على ظهر بعير في قلب البادية .

نظفت الجرح وقدمت له الرعاية الطبية اللازمة، وأعطيته موعداً لتغيير الضماد ومعاينة الجرح بعد يومين . أسند العَم سرحان الشاب المصاب ، وحمل باقي الرجال جثمان الصريع ، وسط نشيج الأب ودموع أخيه

بعد أسبوع وفي وقت متأخر من المساء جاءني الشيخ وحشي :

_ طِبيب (بكسر الطاء) ولدي يعاني ، محموم ، ويرتجف ، القشعريرة تكاد تقطع أنفاسه ... عليك أن تأتي لتراه .. أخاف أن يضيع كما ضاع أخوه .

كان العجوز الأنوف الذي لا ينحني لأحد يتكلم بحزن و أسى ينفطر له القلب .

_ كان عليك أن تحضره لتبديل الضماد ياعم .

_ استعجل طِبيب، سايم عليك جاه الله .

أشفقت على العجوز البائس ومضيت معه، تبعد عزبة الوحشي عن أقرب قرية حوالي نصف ساعة سفر في السيارة، كان البيت المبني من الحجارة وعلى طراز معماري أنيق، يتربع وسط رابية تشمخ في قلب الفلاة ... وعلى مبعدة مئة متر من البيت كانت هناك مضافة مبنية من لِبن و طين ، كانت المضافة وجهتنا حيث الشاب يرتجف تحت لحافه ، بينما تلهب الحمى جسده .

نزعت الضمادة عن جرح أصلان .فانبعثت منها رائحة نتنة كان الجرح يندى بالصديد ، " أخماج إنتانية" كان هذا ما يعانيه أصلان

_ الجرح تلوث والتهب ، ومن المحتمل أن تصل العدوى إلى مجرى الدم .

_ وما العمل الآن ؟

_ سأفعل كل ما في وسعي .

كان أصلان في حالة شبه وعي ... يعاني هبوطاً في ضغط الدم ، وتسارعاً في دقات القلب . كنت قد حملت معي من صيدلية الطوارئ خطاً وريدياً و بعض المضادات الحيوية ومسكنات الألم، بعد أن صار الحصول عليها أسهل منذ تفعيل برنامج النفط مقابل الغذاء والدواء المرقم ٩٨٦ لعام ١٩٩٥..

لزمني الكثير من الوقت حتى تلاشت الحمى التي كانت تعصف بالشاب ، وحين فتح عينيه وفارقته القشعريرة كان الليل قد انتصف ، أصر العجوز على استبقائي في ضيافته ، كان وحشي يتكلم كملك يأمر رعيته ونبرة صوته يغلفها حزن دفين .

بتُّ ليلتي في تلك المضافة الغارقة في ظلام الصحراء، و أمضى العجوز ليله يتجول في أركان الربوة، أما أنا فقد جافاني النوم .

كان الشاب المنهك من الحمى يهذي ويتمتم طوال الليل و ينادي " زينب " ... ترى من تكون زينب هذه .. ربما راعية غنم في البادية ؟ من يدري ؟

وأخيراً طلع الصباح وبعد الإفطار، أمر العجوز أحد رجاله أن يقلني إلى القرية حيث أعمل وقبل أن أمضي قال لي :

_ طِبيب أيوب ؛ إنَّ لك في عنقي جميلاً سأرده يوماً إليك ، أنا منذ اليوم عمك .

ثم صافحني العجوز إمعاناً في توثيق العهد .

وصلت إلى محل عملي ، كان يوماً عادياً فمن المستوصف إلى العيادة في القصبة القريبة وبعد العيادة عدت إلى غرفة الطبيب و حين أطلت رائحة الشاي السنگين من شباك غرفتي ، جاء صوت سرحان ينادي من وراء الحجرات

_ طِبيب ...

فتحت الباب ودعوت سرحان إلى كوب من الشاي وسيجارة ، قَبِل الشاي ، ورفض السيجارة بينما يستل من

جيب دشداشته كيس التتن ودفتر أوراق اللف ليشرع في لف سيجارته التي لا تحلو له ما لم يلفها بأنامله.

_ كيف كانت ليلتك في عزبة الوحشي .

_ ككل الليالي .

_ عجيب !

كان العم سرحان يبدو كدجاجة توشك أن تبيض ، فلديه سبق صحفي يريد أن يطلعني عليه بشكل خاص وحصري .فقلت له ممازحاً :

_ عم سرحان ... أعلم جيداً أن في جوفك كنزاً من الدرر تريد البوح به تفضل، قل ، كلي آذان صاغية جيب ليل و خذ عتابة .

فانفتحت قريحة سرحان للسرد و راح يقص علي قصة آل وحشي منذ زمن الأجداد .

آل وحشي

في العام ١٩١٤ ، وعندما أعلنت السلطنة العثمانية النفير العام أو ما سمي في وقته " سفر برلك" او "دگة الضيم والهلاك" كان الشيخ حمد السلطان في السادسة عشر من عمره فانضم إلى الجيش العثماني، وذهب ليقاتل الألمان في بلاد القوقاز مع جيش قوامه عشرون ألف فرد من أرض العراق و بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية، وحين هُزم الجيش وفي طريق العودة، صادفوا بحيرة قد تجمدت بالكامل ... أعطى قادة الجيش الأوامر للعساكر أن يعبروا البحيرة بأسلحتهم ومعداتهم وعرباتهم، فتكسر الجليد وغرق الجيش ، كان الشيخ حمد من بين القلة القليلة الناجية، وفي أواخر العام ١٩١٨ عاد الشيخ حمد إلى الديار هزيلاً متعباً يعرج إثر إصابة في ساقه اليسرى .

في ذلك الزمان تدفق المهاجرون من بلاد آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية، ومن بين من حط رحاله في ديرتنا .فتاة شديدة الجمال .يقال إن أباها كان والياً على بلاد الكروج أو كرجستان (جورجيا الحالية) ، كانت البنت حورية بكل معنى الكلمة لا تعرف من اللغة العربية سوى كلمات معدودة

_ مسلمان ..رحمات بركات .

نزلت البنت وأمها في حماية الشيخ سلطان جد وحشي وحين عاد حمد ، و رغم كونه مثقلاً بالجراح، ومحملاً بخيبات الحرب والهزيمة ، إلا أن رجولته كانت قد اكتملت فشغفته الفتاة حباً. وبعد أخذٍ ورَدٍ، تم القران وزُفت العروس الجميلة إلى الشيخ

الصـغير، وبعـد شـهور قليلـة تكـورت بطنهـا مؤذنـة بقـرب وصـول وليّ العهد .

كانت عيون النسوة والرجال كلها ترمق العروسين بعين الحسد والغيرة، النسوة كن يحسدن الخاتون على حب الشيخ الصغير جميل الطلعة الذي سحر نساء البادية بعذب

كلامه وحُسن طلعته، والرجال كانوا يحسدون حمد على عطر ضفائرها الذهبية . ولد الصغير ولكنه لم يبصر النور، اختنق في أثناء الوضع . أسمته أمه أصلان على اسم أبيها الذي قتله الروس، وبعد عام دفن حمد ولده الثاني عصمان الذي اختنق بعد دقائق قليلة من ولادته .

سرق الحزن بريق عيون الجميلة وابتسامة حمد التي كانت تأسر القلوب.

وبعد بضعة شهور ارتفعت بطن الجميلة من جديد لكن الخوف كاد يخنق الأميرة وحبيبها . وذات صباح حضرت إلى العرب غجرية تقرأ الطالع ، نادت والدة حمد على الغجرية البصّارة ؛ لتنظر في أمر ابنها وزوجه فنثرت العجوز أصدافها أمام الأميرة الحسناء ثم راحت تقول :

_ "وانتبذت به مكاناً قصياً"، ابنك سيموت كإخوته إن ولدته هنا في هذه المرابع .

وخلال أيام حمل حمد محبوبته الجميلة إلى الربوة التي أمضيت ليلتك الماضية فيها، عاشا في بيت من الشعر حتى ولد وحشي، أسماه أبوه هكذا ليظن الناس أن المولود قبيح الوجه سيئ الطلعة، فلا يحسدونه وهكذا عاش وحشي منتبذاً بنفسه وأهله مكاناً قصياً ...

أصلان

بعد رحيل عصمان أخي الذي لم تلده أمي انفطر قلبي حزناً، وحزّ رحيله في نفسي حتى كاد يقطع فؤادي نصفين، كنت أبكيه، وأبكي ولديه وأبكي نفسي بعد أن خسرت ملاكي الحارس الذي أرسله الله لي ليحملني من الخوف إلى الأمان في تلك الليلة الليلاء، كان مشهد ولديه المنكسرين يقفان جنباً إلى جنب، بينما نواريه الثرى يعتصر قلبي، و الغضب يعتمل في صدري كبحر هائج في وسعه أن يغرق الصحراء ومن عليها .

_ لماذا فتح الجنود علينا النار ؟ من أعطاهم

الأمر؟ .

لم يطل الزمان على تساؤلاتي فبعد الدفن صرف أبي وحشي حشد الرجال وقال :

_ لا عزاء في ولدي عصمان، حتى نقتص من قاتله .

انصرف الرجال إلا واحداً منهم اقترب من أبي وطلب منه الأمان.

_ أمِنت . قال له أبي .

لم ينبس الرجل ولكنه وضع في يده قصاصة من ورق وتعجل في الانصراف.

تناولت القصاصة من كف أبي المرتجف .

_ قتلنا لك اليوم كلباً، تأدب وإلّا لحق به أخوه .

كانت فحوى الرسالة واضحة، يبدو أنّ وشاية قد وصلت إلى العم بشأن تجارة الكحول والسيجار فغضب منا .

زادت كراهيتي لذاك العم المختبئ خلف الكواليس بينما نخاطر نحن بأرواحنا وندفع له الأتاوات دونما تعب أو جهد يبذله ... وفي النهاية يأمر بقتلنا وينعتنا بالكلاب .

غاب أبي وحشي في غياهب البيداء، يبكي وينوح على عصمان وفي نهاية اليوم عاد متعباً، فخلد إلى فراشه، وبعد ساعات، استيقظ فسمعته ينادي

_ داؤود .

لبيت على الفور والعجب يستبد بي، ما الذي حدا بالعجوز لمناداتي بداؤود ؟

_ عونك يابه. قلت غاضاً بصري لأخفي عنه جزعي وحزني .

_ داؤود، بنيّ، أنت حر في المغادرة، أنا أحررك من العهد الذي قطعته على نفسك، عصمان مات، ولك حرية المكوث أو الرحيل .

أحسست في تلك اللحظة أن جبالاً٠ تتداعى بداخلي .

صمتت لبرهة قصيرة :

_ أصلان يابة . داؤود مات منذ زمن .

_ بني، أنا لن يهدأ لي بال حتى أصرع ذلك الكلب الذي قتل أخاك، عندها سأنام مطمئناً في قبري.

_ معاك يابة وحتى آخر نفس.

ثم عانقت العجوز وأجهش كلانا بالبكاء .

أنساني حزني على عصمان جرحي ، ولم أذكره حتى شعرت في ذلك المساء ببرد ينهش عظامي على غير عادتي ، فتدثرت بلحاف ، بينما يتفصد جبيني عرقاً وهرع وحشي الصغير لمناداة أبي، وبعد برهة لا

أدري كم دامت كان الطبيب يقف عند رأسي ليتفحص جرحي، سهر أيوب على راحتي ومداواتي، و لا يدري أنني لست إلا "داغوود" ماسح الأحذية، من شارع فاروق الشارع ذاته الذي خرج كلانا منه.

تعافيت بعد شهر لكنني رفضت الخروج في أي رحلة تهريب، فما الذي سيؤول إليه حال العجوز و الولدان لو أنني لقيت مصير عصمان ؟

وبعد أسابيع أرسل أبي في طلب الرسول الذي أحضر رسالة العم يوم جنازة عصمان . وقال له من بين ما قال:

_ سلم لنا على عمك، وقل له إنّ كل خصام يعقبه رضا .

كان العجوز يحاول الاقتراب من جُحر الثعبان في انتظار اللحظة الحاسمة التي سينقض عليه فيها.

ثم نادى أحد الرجال، فجاء الخادم يحمل صندوقاً من الويسكي وعلبة من السيجار وضعها أمام الرسول، وقال :

_ قل لعمك هذه هدية من الشيخ وحشي .

حمل الرسول الطرد وغادر، ليظل العجوز ساهماً وكانه في عالم آخر

واظبت بعدها على التردد على سوق باب سنجار في الموصل كنت أذهب كل أسبوع مرة أو مرتين؛ فأطيل المُقام أمام المحل الكبير الذي كان عصمان يسلم فيه أمانات العم أول كل شهر، حتى جاء اليوم الذي توقفت فيه أمام المحل سيارة سوداء فارهة ، وترجل منها رجل جثيث بغيض الطلعة أحمر الوجه منتفخ الأوداج ، بنظارتين داكنتين، كنت أصيخ السمع جالساً غير بعيد في المقهى المجاور لمخزن الأغذية ذاك، نزل الرجل من سيارته، و من دون تحية قال :

_ هل مر بك أحد من رجال ربيعة ؟

_ نعم عمي وتركوا لك هذا، قال مشيراً إلى شيء لا تدركه عيناي تحت الطاولة، أزاح العملاق أحمر الوجه نظارتيه ليكشف عن أهم علاماته الفارقة، عينٌ مُطفأةٌ... إنه هو!

ثم ناول العامل مفاتيح السيارة ، حمل العامل الأمانة التي كانت صندوقاً من خمر "بلاك جين" لا تختلف عن الويسكي الذي كنا نغدقه عليه .

العم هو ذاته باسل الأعور .

كنت أرتجف غيضاً فقد ثقل الحساب على ذاك الأعور، نفاني ، ثم قتل أبي ، وأخيراً خطف مني صديقي وأخي الوحيد .

كنت لا أزال مشدوهاً من هول ما علمت ، حين لمحت الدكتورة مريم وخالتها، تمشيان على غير هدى نحو مرآب السيارات والارتباك والخوف بادٍ عليهما، تبعتهما . وبعد حوار قصير وتزكية من رواد المرآب وافقتا على أن أصحبهما في طريقي إلى البادية حيث أيوب .

كان مقدراً على سيارة فقيدي وأخي عصمان أن تحمل الأرواح الخائفة إلى حضن الفلاة فكما حملتني قبل سنوات، ها هي تحمل مريم وابنتها الى أمان منشود .

يمامة

مر عامان على فصل مريم من عملها، أحسست بعدها براحة نسبية لكن ذلك لم يدم طويلاً. فقد كانت مريم غريمتي التقليدية منذ سنوات طويلة، وليس من السهل أن تتحرر من ظل غريمك حتى بعد أن تسحقه.

كانت ذكرى الحفيد الضائع تعود إلى عقل أمي بين حين وآخر .

_ ترى أين ذهبت تلك الحقيرة التي تسببت في إجهاضك

_ قاعدة في بيتها تربي ابنتها وتطهو وتكنس كأي واحدة من مستواها. وتنتظر مولوداً! وتركت جملتي معلقة في انتظار ردة فعل أمي .

قفزت أمي من مكانها، وشهقت وكأن ماءً مغلياً سقط عليها .

_ أعدمها الله ابنتها وعافيتها و وليدها تلك الكلبة، والله لأحرقنّ فؤادها كما حرقت فؤادي.

وبعد يومين وحين عاد مازن من عمله، قالت له من بين ما كانا يتحدثان بشأنه من تجارة وشحنات حليب وسمن وسكر .

_ ماذا فعلت بشأن البنت. أريدها هنا.

_ لم أفعل أي شيء، ولا أظنني سأفعل. عمتي لا تفتحي علينا أبواب الجحيم. لو وصلت أي شكوى في حقنا إلى بغداد ستنفتح علينا أبواب العذاب، ولن نفلح في إغلاقها بعد ذلك، أرجوك اصرفي نظر عن الموضوع ، وأعدك أنني ويمامة سنسافر إلى إنكلترا للعلاج مع بواكير الصيف.

لاذت أمي بالصمت المريب، ولم تحرَ رداً مناسباً لكلام مازن الذي كان يتحدث بلغة العقل والمنطق.

علمت من مازن بعد أسبوع أن رجالاً مجهولون هاجموا مريم في بيتها وقاموا بترويعها، ثم تركوا لها خطاباً يهددونها بخطف ابنتها. كان مازن متيقناً تمام اليقين أن أمي هي من أرسلت من يخوِّف مريم. لاعتقادها أنها لم تنل من العقاب ما يكفي.

_ يبدو أن أمك قد صدقت أنك كنت حاملاً فعلاً!

صعقتني كلمات مازن :

_ وماذا تعتقد أنت؟ هل كنت أكذب؟

_ لا حبيبتي أنت لا تكذبين، لكنك لم تكوني حاملاً مني في يوم من الأيام. إلا إذا كنت قد حملت من رجل آخر.

_ كيف تجرُؤ؟

_ أجرؤ أو لا أجرؤ لا أريد سماع شيء يتعلق بموضوع الحمل بعد اليوم، وإذا كنت ترغبين في طفل ، فلك مطلق الحرية في الانفصال والبحث عن شريك في وسعه أن يمنحك طفلاً ، ولكن إياك وإثارة الغبار والأقاويل حولنا .

تكلم مازن بنبرة آمرة .

_ سأخبر أمي بكل ما قلته .

_ هل كنت تظنين أن أمك فعلت ما فعلته ثأراً لحفيدها؟ إنها تريد الانتقام من أيوب ومريم بسبب حقدها نحوه ونحو عائلته، حقدها الذي لا مسوغ له ، ذلك الذي أورثتك إياه.

_ ولماذا أنت منفعل كل هذا؟ كل هذا لأجل حبيبتك مريم؟

_ يمامتي المدللة، أنا لا أحب ولا أكره، أُحب المال. المال فقط، وأكره من يقف بيني وبينه، أما المشاعر الفارغة فقد تركها قلبي لقليلي الخبرة

من أمثالك وأمثال أمك. و أرجو ألا تنسي في أثناء سردك حوارنا على مسامع الوالدة أن تخبريها أني عرضت عليك خيار الانفصال.
ثم غادر ليتركني فريسة لإحساسي بالوضاعة و الضعف، وكأن وجهي الآخر ذاك الذي كنت أُخبئه عن كل من حولي صار معروفاً لمازن.
لقد تغير مازن عما كان عليه في الأمس القريب، فقد صار قوياً ، ولم يعد يخشى أن نركله خارج عالمنا ، فكيف لأمي أن تستغني عن خدماته بعد أن صار في حوزته الكثير من أدلة الإدانة ضدها، فلو رغبت في طرده أو إبعادي عنه لن تجني إلا المتاعب.

آدم ..أيوب

كان آدم يكبر في جوف مريم يوماً بعد يوم . لاشيء خارج عن المعتاد سوى أنها لم تنفر من عطري ورائحة دخاني هذه المرة كما فعلت في أثناء حملها بفاطمة . كل شيء كان على ما يرام حين حملت حقيبتي لأتوجه إلى البادية حيث أعمل مودعاً مريم والخالة وجدان وفاطمة التي كانت تستعد للعودة الى المدرسة بعد أيام، كان ذلك في مطلع خريف العام ٢٠٠١ ، و آدم لا يزال جنيناً في جوف مريم .
أنتظر وصوله بفارغ الصبر، حين يولد سآخذه وأخته وأمه لنستقر هناك في قلب الصحراء .

وصلت إلى عملي ودارت عجلة الأيام بديدنها المعتاد من دون أي مفاجآت، حتى حلّت تلك الظهيرة الماطرة ، كنت أرتاح في غرفتي قبل أن أخرج إلى العيادة فطرق مسمعي، رجال يتحدثون غير بعيد لكنات وأصواتاً ليست غريبة عليّ هممت بالنهوض وبينما أزرر قميصي، جاء صوت المارد ينادي :

_ طِبيب .

فخرجت مستطلعاً، لأجد سيارة شيفروليه نصف نقل حمراء مهترئة تقف في فناء المركز الصحي، وحشداً مؤلفاً من سيدتين، ورجلين، يقفان حول السيدتين سرحان حارس المركز الصحي وأصلان الشيخ وحشي .. كنت أحثّ الخطى غير مصدق ما أراه. فاطمتي أنا تغفو منهكة على كتف أصلان، وتقف إلى يمينه مريم وقفة المهزوم اليائس، وقد خضب الوحل أطراف ثوبها، تقدمت من الحشد، وعقلي تتقاذفه أفكار لا تتسع لها اللحظات.

_ مريم ماذا هناك ؟ قلت بعد التحية .

_ احكي لك فيما بعد .

أصر أصلان على اصطحابنا الى عزبة الوحشي لاستضافة العائلة، وافقته ومضينا إلى هناك حيث اجتمعنا مع الشيخ وحشي في الربعة الطينية وسط الربوة القصية.

_ ما الذي أتى بكم مريم ؟ تكلمي أرجوك . قبل أن أفقد رشدي .

_ شيء لا يصدق، يا أيوب. قالت مريم وهي ترتعد.

اتصلت الخالة نوران وطلبت أن نرسل لها بعض

الأغراض الموجودة في بيتها مع سائق كان سيغادر ذلك المساء إلى الشمال . كانت الخالة مترددة بشأن اصطحابي وفاطمة معها، فأنت تعلم قلقها الدائم بشأن فاطمة ولكنني كنت مصرة على مرافقتها لا أدري لماذا، المهم ذهبنا إلى بيت الخالة وجمعنا ما نريده من حاجيات .. وحين عدنا بعد الظهر كان باب المطبخ مفتوحاً!

دار بيني وبين خالتي حوار مفاده أننا قد نكون نسينا الباب مفتوحاً... وإلّا فأي مقتحم هذا الذي يحمل نسخة من مفتاح البيت ؟ دخلت فوجدت أن البيت لم يكن كما تركناه وخاصة غرفتي، هناك أيدٍ عبثت بالمكان في غيابنا، تسلل الخوف إلى قلبي، ولكنني لزمت الصمت فلم أرغب في أن أنقل عدواه إلى خالتي، وبعد منتصف الليل استيقظت على صوت رجال يبدو وكأنهم سكارى يتجولون في حديقة المنزل، كنت أرتعد من الخوف ولكنني غالبت خوفي، وتحركت في المنزل وأحكمت إغلاق النوافذ ودفعت خزانة المطبخ وحشرتها خلف باب المدخل ... كنت أسمع صوت غناء بذيء وشتائم قذرة ، وبعد حوالي الساعة بدؤوا بالطرق على باب المطبخ، لم يكن طرقاً، بل

ركلاً أو محاولة اقتحام، ثم راح أحدهم ينادي بعلو صوته :

_ فاطمة... فاطمة... تصور كان يشتم الطفلة بشتائم يندى لها الجبين!

كان صوته عالياً بما يكفي ليوقظ فاطمة التي فزعت من منامها وهي تبكي وتصرخ :

_ ماما.. الحرامي ينادني

عانقتها وأخبرتها أنه مجرد كابوس.

كانت مريم تتكلم وتشهق كطفل خائف يعجز عن البكاء.
_ اهدئي مريم، أنتم في أمان الآن . قلت بينما أضمها إليّ في محاولة لاحتواء خوفها من تلك الذكرى الأليمة ، علا نشيجها ما إن لامس وجهها قميصي، ثم أكملت سرد باقي الحكاية :
_ سكتوا قبل أن يؤذن الفجر بحوالي عشر دقائق ، و سمعت صوت محرك سيارة يدور، ظللنا أنا وخالتي متجمدتين، لا نجرؤ على مبارحة غرفة النوم، ومع شعاع الصباح الأول نامت فاطمة.
خرجت بعدها لأستطلع البيت، فوجدت ورقة ملقاة من تحت باب غرفة الاستقبال، لا تزال في حقيبتي.. كُتب عليها
"العاهرة الصغيرة مقابل دم ابننا الذي قتلته أيتها المجرمة" .
حاولت الاتصال بجدك علي ؛ ولكن الخطوط كانت كلها معطلة. لم أكن متزنة إطلاقاً، كنت أرتجف، ولا أعرف ماذا أفعل ولا أملك الكثير من الوقت لم يخطر في بالي سوى الهروب إليك ، حملت ما يمكنني حمله وتوجهت مباشرة إلى باب سنجار، وبينما كنت أسأل سائقي السيارات عن سيارة متوجهة إلى البادية تطوع الأخ بإيصالنا .
كان كل شيء في داخلي يحترق غيظاً كنت أشبه ببركان يطلق الحمم التي تصطدم بحاجز وهمي فتعود لتحرق جوفي .
يتردد صدى كلمات مريم في عقلي ، فينهشني حتى لا يُبقي فيّ عقلاً.
أصرّ الشيخ وحشي على بقاء العائلة في ضيافته .
أمضيت ليلتي، في الربعة الطينية مع أصلان . بينما آوت النسوة إلى البيت الكبير، وقبيل الفجر طرقت الباب علينا السيدة أم سعيد أرملة عصمان وما إن رأتني :

_ إنها تناديك . قالت تخاطبني .
ثم مشت تقودني الى حيث كانت مريم راقدة يبدو عليها التوجع
_ ما الخطب؟
_ يبدو أن الوقت قد حان، قالت، بينما تعتصرها آلام مخاض مبكر و أوجاع قلب جريح .
لمست بطنها فوجدت رحمها متحجراً كجلمود .
أيقنت أنّ القصة محسومة " مخاض مبكر " ، في غضون نصف ساعة كان آدم بين يدي يشهق في محاولةٍ بائسة لشهيق أول يملأ رئتيه الصغيرتين لكنهما لم تسعفاه.
وبعد ساعتين سلّم روحه الجميلة إلى خالقها .ومع خيوط الفجر الأولى أودعت ولدي، الذي رفض أن يهبط من الجنة إلى الأرض، في التراب .
جلست جانباً بينما يقتحم ضوء الفجر خلوة الليل،
كنت أريد العيش في سلام، كنت أريد المكوث ؛ لكنّ وطني كان يدفعني بكل ما لديه من جور نحو بوابة الرحيل ...
إنها الأوطان، كالأرحام نهجرها لتبدأ الحياة .
لم أذهب إلى عملي ذلك الصباح ، فقد حطّم رحيل آدم المبكر عنادي وتشبثي بنظرية الوطن ، كنت عازماً على المضي بعيداً.
حدثت أصلان في أمر تسهيل عبوري الحدود إلى الأراضي السورية، فاعتذر؛ لأن لديه مشكلات مع المتنفذين على المخافر العراقية السورية، لكنه أعرب عن استعداده لتسهيل عبوري الى الأردن . من خلال مدينة القائم، كلفني حصولنا

على جوازات سفر كل مدخراتي ومصاغ زوجتي، وفي غضون أسبوع كنت أضُمُّ قبضتي على جوازيّ سفر؛ لي ولمريم وفاطمة ملحقة بجواز أمها، كانت الجوازات مختومة بأختام مبارحة الديار و ولوج المنفى، هكذا لا شيء أقسى من الضياع .

وبعد ثلاثين ساعة من تسلمي الجوازين، كنا أنا ومريم وفاطمة وأصلان نعبر الفيافي والوديان ونعبر الحدود العراقية إلى مدينة الرويشد الأردنية.

مازن

ما هذا؟ ما الذي عاد بي إلى بلدتي ، ما الذي أفعله هنا في بيت " البلدامة" الظلام حالك إنه فقط ضوء الفانوس المنبعث من شبابيك مخدعها.

لا أكاد أرى انعكاس صورتي في المرآة، إنني مازن بحلتي الجديدة، ولكن ما الذي جاء بي إلى هنا؟

_ صيّاح، أيها النغل، صيّاح .

نادتني من مخدعها، فدخلت لأجدها تتوشح بشالٍ، لا يُظهر منها إلا عينيها. اقتربت، ورفعت الغطاء عن وجهها، تملكني الهلع، وعدت خطوة إلى الخلف، إنها يمامة!

نهضت من نومي مذعوراً ، وقد جف حلقي ، وجبيني ينز عرقاً . إنني هنا في سريري، ويمامة إلى جواري.

عبثاً حاولت العودة إلى النوم ، فقضيت ليلي كله ساهراً.

عاودني هذا الكابوس مرتين بعد ذلك... حتى أنني صرت أخشى أن أنام كيلا تزورني " البلدامة" من جديد بصورة يمامة.

في شتاء العام ٢٠٠١ قضى والدا يمامة في حادث سير مروع على طريق الموصل بغداد، فقد دخلت سيارتهما المرسيدس تحت شاحنة ضخمة.

لقيت سهام عبد الرحمن حتفها بأبشع صورة، لقد سُحقت عظامها، وتمزق لحمها تحت أكوام الحديد الملتوي إلى درجة اضطر معها عمال الإنقاذ إلى قطع الحديد بمنشار لاستخراج ما تبقى منها، أما الرفيق سالم فقد قذفه الاصطدام مسافة مئتي متر عن موقع الحادث . عُثِر عليه ميتاً وقد سُحقت عظامه.

الغريب أن يمامة لم تحزن على والديها، بما يناسب فداحة الحادث وعِظم المصاب. كانت ستذرف دموعاً أكثر لو أن سيارة دهست قطتها.

كانت تشرب الخمرة التي أدمنتها في الشهور الأخيرة كل ليلة بعد انصراف المعزين، وفي الليلة الأولى التي قضاها والداها في المقبرة، دخلت غرفتهما وفتحت الخزانة و جرَدت كل ما فيها . وعكفت ليلتها على قراءة بعض الأوراق التي وجدتها هناك. كنت طوال عهدي بيمامة أظن أن أمها هي مصدر قوتها، وأحسب أنها ستنهار ما إن تفقد أمها وتتحول إلى حمل وديع. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك، فقد كانت السيدة سهام تمثل الحاجز الذي كان يمنع يمامة من غرس مخالبها في كل من حولها .

صارت تطيل السهر خارج البيت لتعود مترنحة آخر الليل، لجمت نفسي عن الاعتراض أو الاستفهام في البدء احتراماً لمشاعرها، إذ لم يكن قد مضى على وفاة والديها سوى أسابيع قليلة ، ولكن وحين كثر الهمز واللمز حول ترددها على شقة باسل. حاولت أن أردعها .

وذات ليلة عادت متأخرة كعادتها وقد لعبت الخمرة في رأسها.

_ أين كنتِ؟

_ وما شأنك؟ قالت متذمرة.

_ كنت مع باسل؟

_ أجل، كنت معه. دعني أزيدك بيتاً من الشعر، أنا حامل منه. حامل في الشهر الثالث.

صفعتها من دون وعي.

_ ساقطة.

_ كيف تجرؤ ؟ أيها اللقيط، النغل، هل نسيت من تكون؟

لست سوى صيّاح مجهول النسب.

لجمتني كلماتها، فتركتها وغادرت، جُبت الشوارع والدروب كعادتي حين تضيق بي السبل، وقبل أن ينبلج الصباح، كنت قد اهتديت إلى مخرج من ورطتي.

لم يكلفني الأمر سوى ثلاث زجاجات من عقار "ديجيتاليز" المحلول الفموي المُعد ليستهلكه الأطفال مرضى القلب. كان الشكل الصيدلاني المتوافر من عقاري الأثير هو محلول "لانوكسين" زِنة ربع مليغرام.

عدت إلى البيت حين ارتفعت الشمس في السماء، كانت الفاسقة لا تزال نائمة، تعيرني وتصفني باللقيط وابن حرام وتنعتني بالنغل، بينما تحمل في أحشائها نغلاً صغيراً.

توجهت مباشرة إلى البار التي كانت قد جلبته مؤخراً لتضع عليه قوارير خمرها، فوجدت زجاجة "بلاك جين" مفتوحة، فتركتها لعلمي أنها لا تشرب الجين إلا مع التونيك الخاص به، ولم أكن أرغب في أن يفقد عقاري الحبيب شيئاً من تركيزه، ففتحت زجاجة ويسكي صغيرة وأفرغت شيئاً من محتواها في الحوض وأضفت قارورتين من لانوكسين ومن ثم أعدتها إلى جوار رفيقاتها من القوارير الباهظة. انتظرت حتى جاءت الخادمة فأخبرتها أنها في إجازة هذا اليوم، بحجة أننا سنسافر إلى بغداد ما إن تستيقظ السيدة. غادرت الخادمة، انتظرت بعدها نصف ساعة إضافية، خشية أن تعود أدراجها ثم فصلت قابس الهاتف الأرضي ، وغادرت إلى عملي، كنت أعلم أنها لن تصحو قبل العصر، ولن تغادر المنزل فقد أرسلت حبيبها في مهمة خارج المدينة تدوم ليومين، هكذا لن يتبقّ لها سوى الخمر وجدران المنزل .

ذهبت إلى عملي وفور وصولي إلى المكتب طلبت من الفرّاش أن يعد لي "استكاناً" من الشاي المغلي حتى ما قبل الاحتراق، انهمكت بعملي وجرفتني دوامة الانشغال مع جرعات الشاي ، وبعد غياب الشمس بحوالي ساعة قفلت راجعاً إلى البيت، دورت المفتاح ودلفت إلى الصالة لأجد الجميلة مسجاة على الأرض من دون أي علامة للحياة .

تألمت كثيراً، لقد تعجلت المضي لماذا لم تنتظرني لاشهد لحظات ضعفها الأخيرة.

ما علينا، قلبت جسدها الكريه لألقي عليها نظرة أخيرة، كانت ميتة منذ زمن، أعدت ربط قابس الهاتف ، وهرولت إلى غرفة النوم، جمعت ما خف حمله وغلا ثمنه ، فكانت غنيمتي هذه المرة أخف بكثير مما غنتمه بعد هلاك " البلدامة". خبات كنزي الصغير في مأمن، واستبدلت بقارورة الويسكي الممزوج باللانوكسين قارورة أخرى أفرغتها في حوض المرحاض وأعدتها إلى الطاولة ثم حملت حبيبتي إلى المستشفى، لم يُتعب الطبيب المناوب نفسه في الكثير من الاستنتاجات، واكتفى برواية اختلقتها ، وأعلن الوفاة بسكتة قلبية.

حضر إخوة سالم عبد الرحمن ليشهدوا دفن ابنة أخيهم، الغريب أنهم لم يسألوا عن إرث أو تركة، بل انصرفوا بعد انقضاء العزاء كما يفعل الغرباء ، وهكذا آلت مجوهرات سهام وابنتها التي اكتنزتاها على مر السنين إليّ، ولم تكلفاني سوى قارورتي ديجوكسين.

و قتل داوود جالوت

أصلان _ داوود

سافر أيوب وعائلته الى عمّان ، صار علي ان أُتم ما بدأته .

تيقنت تمام اليقين أن العم ليس إلا باسل القصاب ، تتبعت خطاه وتقصيت أخباره هنا وهناك، فعلى الرغم من كوني الآن راعي غنم بدوي، غير أنني لا زلت أحتفظ بمهارات ماسح الأحذية الفتى الذي يجيد معرفة شيء عن كل شيء .

علمت أن له محل عطور في زاوية بعيدة في أحد أسواق المدينة، وأن المحل كان واجهة لاصطياد بنات الليل.

حملت المسدس الذي طال حبسه في صندوق ثيابي في عزبة الوحشي، ولقمته تسع رصاصات، ودسسته تحت مقعد السائق ، في حين تستقر سكيني ذات الوعل في مكان ما تحت حزام كنت أتزنر به فوق ثوب عربي أسود اللون ، بعد أن شحذتها، حتى كادت أن تلتهم غمدها لمُضي نصلها ، لم أصحب البيك أب شيفروليه، بل سيارتي الجديدة لتعينني على الفرار بعد إتمام مهمتي، وفي مساء التاسع عشر من تموز ٢٠٠٢ انطلقت قاصداً نينوى، ومع حلول الظلام، كنت أركن سيارتي البيك أب تويوتا ٢٠٠٠ في زاوية بعيدة أنتظر أن تأتي سيارة المحارب الخسيس، وبعد ساعة أطل الخنزير يقل إلى جانبه شابة لا تصل قامتها إلى منكبه، دخلا المحل الذي علمت أنّ شقة صغيرة كانت ملحقة به، وبعد أكثر من ساعة خرجت الشابة من دونه، واستقلت سيارة كانت تنتظرها على الناصية، تعجلت الخطى ودخلت إلى المحل، كان العربيد يقف مديراً ظهره إليّ:

_ أريد عطراً. قلت بلهجة بدوية

التفت إلي وقال ساخراً:

_ لا نبيع عطر بعرور .

اقتربت منه، ولويت بيسراي ذراعه الى ظهره وضغطت عليها بشدة حتى صرخ :

_ من أنت ؟

_ داوود العوصة، ألا تذكرني؟ جئت لأمنحك ثلاث هدايا، واحدة لمنفاي، و واحدة لدم أبي، وأخرى لأخي عصمان ... عصمان الوحشي ألا تتذكره ؟

ثم ركلته حتى سقط أرضاً، و انقضضت عليه ، حاول الإفلات من بين براثني لكن هيهات، فأنا الآن أصلان الوحشي الذي وهبته الهيماء قبضة تفتت الصخر ، وكزته بقبضة يدي مرتين أو ثلاث فاستسلم كذبيحة تنقاد إلى جزارها ، بدا كأنه كان في انتظار هذه اللحظة ، فاستللت سكيني من غمدها اخترقت أول طعنتين أضلاعه . أما الثالثة فقد نقذت إلى قلبه . تركته غارقاً في دمه . غادرت بعدها أطوي الأرض إلى عزبة الوحشي .

كنت أشعر بخفة لم أشعر بها منذ سنوات طويلة ، ها قد تحررت روحي من غيظها وتحررت من كابوس حياتي .

وصلت مع صافرة قطار الرابعة فجراً المنطلق إلى "عكاشات"، تنقله الريح وتعينه هدأة الليل ، كان أبي ينتظرني على الصخرة ذاتها التي استقبلني عندها منذ سنوات ، ترجلت .فهرع إليّ أبي وحشي يتمتم بعبارات لا أفقهها، ناولته من فوري سكين الوعل التي لا تزال مخضبة بدم ذلك الخنزير .

افتر ثغر العجوز عن ابتسامة، عاجلتها عبرة سكبت على وجنتيه المتعبتين، ثم تناول "التفنگة" المعلقة على كتفه وأطلق ثلاث رصاصات في الفضاء معلناً بدء الحداد على رحيل عصمان .

استقر المقام بمريم وأيوب في العاصمة

الأردنية . عاشا هناك مع يوسف ووالدة أيوب وزينب، لم يرزقا بطفل بعد رحيل آدم ، وعاد كل منهما إلى ممارسة عمله .

عاش الشيخ وحشي حتى ناهز التسعين .

لازمه أصلان (أو داوود) و سعيد و وحشي الصغير حتى آخر أيامه وحين فارق الدنيا دفن إلى جوار عصمان .

كتب أصلان على شاهد قبر أبيه وحشي

"هنا يرقد الشيخ وحشي ملك البادية "

وعلى شاهد قبر عصمان

"الموت يحدث مرة واحدة، يا أخي، بينما تعيد مأساة الجبناء نفسها كل يوم "

أما على نصيبة قبر آدم فقد كتِب :

"هنا يرقد آدم الذي رفض أن يهبط من جنته "

ظل أصلان عازفاً عن الزواج على أمل أن يلتقي يوماً بزينب حبيبته ليكونا معاً.

تكرر ظهور مازن (فتى الديجيتاليز) على القنوات الفضائية بدايات العام ٢٠٠٣ تحت عنوان معارض عراقي وزعيم حزب ، ومناضل قديم ضد نظام البعث .

وتستمر الحكايات، مادام دجلة يجري، وما دام في قلب العراق نبض .

تمت بحمد الله .

د. رجاء صالح الجبوري .

١٥ _ حزيران _ ٢٠٢٢

المحتويات

مقدمة: ٩
مجهول النسب ١١
صيّاح ١١
مازن نافع عطية ٣٥
يمامة ٤٧
مازن ٥٦
صيّاح من جديد ٥٦
يمامة ٦٠
مريم _ ١٩٩٨ ..... ٦٢
أيوب ٦٤
العودة إلى حضن العائلة ٦٧
يمامة _ ١٩٩٨ ..... ٦٩
ثعلب الصحراء ٧١
أيوب ٧١
سيدة مهمة جداً ٧٣
مريم ٧٣
محاكمة غير عادلة ...مريم ٨٠
داؤود ٨٥
باسل النجس ٩١
باسل رزّاق القصاب ٩٧
تسعينيات ... داؤود ١٠٣
باسل ١٠٩
داوود شتاء ١٩٩٧ ..... ١١٢

رجل الحذاء الإيطالي داؤود ١١٤
وحشي ١١٩
سيارة غريبة ١٢٠
عزبة الوحشي ١٢٢
أصلان ١٢٤
داؤود ١٢٧
تهريب مواشٍ ١٣٨
أصلان ١٣٩
كابوس باسل ١٤٠
أيوب _ ١٩٩٩ ..... ١٤٢
طلق ناري ١٥١
آل وحشي ١٥٦
أصلان ١٥٨
يمامة ١٦٢
آدم ..أيوب ١٦٤
مازن ١٦٩
و قتل داوود جالوت ١٧٣
أصلان _ داوود ١٧٣
تمت ١٧٨
بحمد الله ١٧٨

تمت

بحمد اللّه

سنكين

رجاء صالح الجبوري

رواية

لا أحد يعرف متى وأين ولد صيّاح، كل ما روي له أنهم حينما وجدوه ذات صباح، كان ملفوفاً بخرقة ، ومرمياً على باب أحد دور العبادة في ضاحية بعيدة شرقي البلاد ، حدث ذلك في أواخر ستينيات القرن العشرين . تكفلت عجوز سيئة الطباع تعيش على الطرف البعيد للبلدة بتربيته ، أو بالأحرى بإيوائه . فما فعلته لم يكن يمتُّ إلى التربية بأية صلة. أطلقت عليه اسم صيّاح ؛ لأنه كان كثير البكاء والصياح. فالعجوز الملعونة بخلت عليه باسم يليق بالبشر، ولم تسجله في دائرة النفوس ؛ لأن المشرِّع العراقي غفل عن أمر اللقطاء ومجهولي النسب في عام ، ١٩٥٩ ولم يفطن إلى وجودهم حتى العام ١٩٧٤ ... هكذا عاش صيّاح على هامش الوجود عالقاً في رحم الحياة بين الوجود و العدم.

#إقرأ....
dar alabdaa
2013
07708361926
07710651968
da_alabdaa
9789957691837